الفصل الأول

مقدمة إلى موسكو

« لقد رأى بعض من أسلافى أنه من المفيد أن يشيروا إلى المؤهلات والميزات التى ينبغى أن تتوفر فى الوزير الأمريكى لدى روسيا والتى ، حسب تقديرهم ، تحقق أعظم النتائج .

« وإنى إذ أحاول ذلك الآن فليس هذا بدافع من الفضول وإنما لكى أعطى فقط ثمار تجارب ومشاهداتى مهما يكن الأمر بالنسبة لقيمتها ... وفى اعتقادى أن وزير الولايات المتحدة الأمريكية ، خاصة فى هذا الوقت ، ينبغى أن يكون رجلا عسكريا . بمعنى أن يكون قد اشترك فى العمليات الحربية فعلا .. وأن يكون ذا قدرة على التمسك بمطالبه .

« ولست أقول بهذا لمجرد مظهر الخيلاء الذى يتبدى فى الزى العسكرى .. ولكن لأن حكومة روسيا إنما هى حكومة عسكرية . ولا جدال إذن فى أن وزيرا ذا معلومات عسكرية محترمة وذا سمعة طيبة يكون أقوى بكثير منه لو كان مدنيا .

« وإن الدوافع العادية لتعيين عسكرى لتزداد قيمتها ، فى تقديرى ، بسبب الوضع الحاضر فى روسيا وبسبب أطماحها .

فتأثيرها على بقية أوربا لا يقاوم .. خاصة فى الولايات الألمانية .

ويرجع سر تأثيرها هذا وسطوتها إلى قوتها وروحها العسكريتين الهائلتين واللتين يساعدهما جهاز ديبلوماسى قد لا يكون له نظير .

« وفى إيجاز .. أود أن أقول إن روسيا قوة من الضرورى أن نتواءم معها بكل الوسائل المشرفة .. ومن بين هذه الوسائل الميزات اللائقة فى وزيرنا إليها والتى هى بالتأكيد أرخص ما هو مطلوب من جكومتنا »

[مقتبس من رسالة لوزير أمريكا فى روسيا]
مؤرخة فى ٢٧ يناير ١٨٥٣

* * *

بعد انتهاء الحرب فى أوربا وانقضاء ثمانية أشهر على اضطلاعى بتبعات الاحتلال فى المنطقة الأمريكية بألمانيا .. عدت إلى « وزارة الحرب» وكان ذلك فى ٥ يناير عام ١٩٤٦ حيث توليت أمر قسم العمليات والخطط لأركان الحرب .

وكان هذا العمل هو الذى أرنو إليه بعد حملات شمال افريقيا وصقلية و إيطاليا وألمانيا .

فقد أعاد شملى مع زوجتى فانشأنا لنا منزلا فى واشنطن .. كما هيأ لى مرة أخرى فرصة العودة إلى وطنى بعد غيبة مستمرة تقريبا لأكثر من أربعة أعوام .

على أنى ما كدت أبدأ عملى الجديد جديا ، حتى دق التليفون ذات يوم على مكتبى . وأخبرتنى سكرتيرتى بأن المتحدث هو جيمس بيرنز وزير الخارجية . وقد طلب منى الوزير أن أوافيه إلى مكتبه .

ولم تكن عندى وأنا فى طريقى إليه أية فكرة عن غرضه من طلبى .

و بدون مقدمات .. نفذ إلى الموضوع فوراً .. فقال لى إنه يرغب فى أن أذهب إلى موسكو سفيرا لأمريكا هناك ، كما قال لى إنه تكلم فى ذلك مع الرئيس ترومان وحصل على موافقته .

ثم ذكر لى أن فكرته كانت أصلا أن أعين أولا فى وظيفة ديبلوماسية أخرى فى إحدى السفارات الأمريكية بأوربا لفترة وجيزة أكتسب فيها المران الديبلوماسى المبدئى .. ولكن الموقف تغير نظرا لأن السفير الأمريكى السابق افيريل هاريمان ، الذى ظل فى موسكو منذ اكتوبر عام ١٩٤٣ والذى وقعت مدته هناك كلها خلال أيام الحرب الطويلة المضنية ، قد عين فى لندن وأن الحاجة ماسة إلى تواجده هناك فى الحال .. وليس من المرغوب فيه أن يبقى المكان فى موسكو خاليا لمدة طويلة .. وقد اتفق مع الرئيس على أن فى هذه الآونة يجب أن يرأس البعثة الأمريكية فى موسكو رجل يعرف الروسيون عنه على الأقل سمعته الطيبة ، ولا يترددون فى قبوله بحكم استعداده للتحدث معهم بصراحة وأمانة .

وأشار الوزير إلى أنه حقيقة كان السفراء الأمريكيون إلى موسكو فى العادة مدنيين وأنه نادرا ما كانوا عسكريين ..وفى هذه الحالة الأخيرة كانوا عادة من الضباط المتقاعدين ..

ولكن بالنسبة لى قال إنه ليس ضروريا أن أترك « خط عملى » فى الجيش ، فالحكومة ستطلب من الكونجرس الموافقة على قانون خاص يبيح لى الاحتفاظ بدرجتى فى الجيش بينما أنا فى وظيفتى بوزارة الخارجية .

ثم قال الوزير إنه يؤمن بأن وجود رجل عسكرى كسفير لأمريكا فى موسكو سيكون حقيقة ميزة . . ذلك لأن المارشال ستالين قد أظهر فى عدة مناسبات نوعا من عدم الثقة فى الديبلوماسيين المدنيين الذين تدرجوا فى السلك الديبلوماسى . . بينما أظهر نوعا من التفضيل للرجال العسكريين كديبلوماسيين .

وقال الوزير أكثر من ذلك إنه والرئيس ترومان يعتقدان بأن قواد الميدان الروسيين المظفرين الذين كانوا شبه مؤلهين خلال الحرب والذين لم يكونوا يخضعون للرقابة السياسية التى كان فرضها أمرا مألوفا على جميع رتب الجيش الروسى قبل وخلال المراحل الأولى للحرب .. سوف يستمر نفوذهم الفعال على السياسة الروسية وربما على العلاقات الخارجية أيضا.. وقد تعلم هؤلاء القواد الروس بعض الشىء من الغرب نتيجة لتجارب بهم خارج الاتحاد السوفيتى ، وأدركوا ـ وهو ما كان مأمولا ـ الضرورة الدائمة للتعاون مع الحلفاء . ولا ريب أن صلتى السابقة بهم قد تعين على إزالة الغشاء الصلب الذى بدأ يتكون على سطح موقف الاتحاد السوفيتى تجاه الغرب .. فضابط خدم فى أوربا من الممكن أن تكون فرصته مواتية أكثر لكى « يدخل » تحت الجلد الروسى فى هذه المرحلة الحالية من العلاقات الدولية ، ويحصل على إجابات صريحة عن الأسئلة الكثيرة التى بدأنا نضيق بسببها .

وقد لاحظ الوزير أن اقتراحه كان مفاجأة تامة لى .. فقال إنه لا يضغط على لكى أعطيه جوابا فى الحال و إنه يعطينى يومين أو ثلاثة لأتدبر الأمر إلا إنه يأمل أن أقدر الأهمية البالغة لسفارتنا فى موسكو .

ولما كنت غير مستطيع التفكير فى أى سؤال أو استفسار له قيمته . أجبت بأنى سأتحدث فى الأمر مع رؤسائى ومستر باترسون وزير الحربية والجنرال إيزنهاور وأتدبر الأمر مليا ثم أعطيه جوابى بأسرع ما يمكن .

ومرت بذاكرتى سريعا ذكرى اتصالاتى السابقة بالروس .. فى مسرح شمال افريقيا أولا ثم فى حوض البحر الأبيض المتوسط .. وأخيرا أثناء العمليات الحربية فى أوربا واحتلال ألمانيا .

فأول اتصال مباشر بين الروس وحلفاء الغرب بشأن أعمال الميدان حدث فى شمال افريقيا عندما تكونت لجنة البحر الأبيض المتوسط للتشاور في المسائل المتعلقة بإيطاليا. أول قوة كبرى للمحور تستسلم لجيوش الحلفاء .

وكان هذا فى خريف ١٩٤٣ عندما كانت أدوات الدعاية الروسية توجه نقدا مرا إلى الأمريكيين والبريطانيين لتأخرهم فى فتح الجبهة الثانية فى غرب أوربا وفى تحملهم قدرا من الضغط الشديد الذى كانت توقعه أكثر من مائتى فرقة ألمانية على الجيش الأحمر.

وكان هتلر والمشرفون على دعايته ، من ناحية أخرى ، يبذلون غاية جهدهم لإيجاد الفرقة بين الحلفاء.. بأن كانوا يضربون على وتر عداوة الشيوعية لنظام الغرب ويحاولون إقناع الاتحاد السوفيتى بأن الحلفاء الغربيين إنما يتركونه لكى يستنفد قواه البشرية فى معركة يواجه فيها وحده وطأة وثقل الجيش الألمانى دون أن يلقى منهم أية مساعدة تقريبا .

وقد نشر وكلاء النازية والعاطفون عليها إشاعات فى العواصم الغربية بأن الاتحاد السوفيتى على وشك أن يعقد صلحا منفردا مع الألمان . بينما سمعت موسكو من مصادر مماثلة بأن الحلفاء الغربيين يتباحثون فى صلح منفرد مع ألمانيا و بأنهم ـ متحالفين معها ـ سينقضون على الاتحاد السوفيتى المنهك القوى ويمزقونه .

وكانت حقيقة بارزة فى الرأى العام الغربى وقتذاك ، رغبته الصادقة فى أن يقوم دليل ملموس على أن حلفاء الغرب والاتحاد السوفيتى ـ رغم الفروق الشاسعة فى نظاميهما السياسيين ـ يتعاونان بهمة و إخلاص لكسب الحرب فى أقصر مدة ممكنة .

وكانت ثمة خيبة أمل واسعة المدى بسبب اعتذار المارشال ستالين عن عدم استطاعته قبول الدعوة التى وجهت إليه فى يناير ١٩٤٣ لكى يشترك فى مؤتمر مع الرئيس روزفلت

ومستر تشرشل و يعقد فى الدار البيضاء ، أو قبول اقتراح بديل بأن ينقل مكان الاجتماع عدة آلاف من الأميال نحو الشرق . إذ أجاب بأنه مشغول فى إدارة دفة جيوشه لدرجة لا يستطيع معها مغادرة بلاده .

ولم يكن بد من أن يقف الأمر مؤقتا عند هذا الحد .

إلا أن غزو الحلفاء لإيطاليا أتاح الفرصة لبدء نوع من التعاون الذى كانت ترغب فيه شعوب الأمم المتحالفة مخلصة . وكانت لجنة البحر الأبيض المتوسط التى شكلت من ممثلين سياسيين لحلفاء الغرب والاتحاد السوفيتى والتى كونت لتشير على الحكومات المتحالفة بالطريقة السديدة التى تعامل بها إيطاليا دولة المحور المنهزمة ، التى استسلمت للحلفاء بعد عزل موسوليني وقيام حكومة فيها برئاسة الملك والمارشال بادوليو .. وأخذت تنشد السبيل إلى صداقة الشعوب بأن تقاتل فى صفوف الحلفاء .

وكان الوفد السوفيتى الذى قدم إلى الجزائر فى أول اجتماع للجنة ، برئاسة فيشنسكى نائب وزير الشئون الخارجية الروسية وقتذاك والذى سبق أن اشتهر كنائب عام شديد البأس فى محاكمات التطهير التى جرت فى موسكو فى أعقاب عام ١٩٣٠ .

وخولت كرئيس لأركان الحرب أن أنوب عن الجنرال إيزنهاور فى حضور هذا الاجتماع الأول .

فوجدت فيشنسكى مهاجما إلا أنه كان محتملا . وقد أعطى شعره الأشيب وعيناه الزرقاوتان الحادتان وقوة ضبطه لنفسه ومظهره الذى ينم عن الذكاء . . أعطى كل هذا فكرة أولى رائعة عنه .

وهو ذو روح مرحة حية . وبوسعه ـ إذا ما أراد ـ أن يبدى قدرا كبيرا من خفة الروح .

غير أنه عندما دخلنا جديا فى العمل ، اكتشفت فى الحال أن الصفة البارزة فيه هى الصرامة الجافة .

وكان معه الجنرال فازيليف كبيرا للمستشارين العسكريين . وكان فازيليف هادئا وقورا متحفظا لطيفا . وكان مظهره يوحى بأنه استاذ جامعى أكثر منه رجلا عسكريا متمرسا برز كرئيس لأركان حرب جبهة الأورال خلال بعض المعارك العنيفة فى الشطر الأول من الحرب فى روسيا .

وكان معه أيضا جنرال صغير لا أتذكر اسمه . . وكان هذا الجنرال يبدوا أكثر شغفا بالمسائل السياسية منه بالمسائل العسكرية . وكان لا بد لشخص أكثر معرفة بالنظام الروسى مما كنت وقتذاك ، أن يدرك أنه ضابط من البوليس السرى الروسى الذى يرافق عادة جميع البعثات الروسية الهامة .

وكان هذا الضابط يتكلم الانجليزية السليمة . وكان يتولى الترجمة بيننا وبين الفريق الروسى .

وفى الاجتماع الأول . . طلب فيشنسكى بطريقة مباشرة السماح للضباط الروس بزيارة جبهة الحلفاء فى إيطاليا . ولم نكن بالطبع غافلين عن تكرار طلب الضباط الأمريكين والبريطانيين فى روسيا لتتاح لهم الفرصة لكى يشاهدوا العمليات الحربية الروسية ضد الألمان ، وتكرار رفض الروس لهذا الطلب . . إلا أننا من ناحية أخرى كنا ندرك نظرة الاستخفاف التى كان ينظر بها الروس إلى عملياتنا الحربية فى البحر

الأبيض المتوسط واعتبارهم إياها « استعراضا ثانويا » . . كما كنا ندرك أنهم يرون أنه كان من الأفضل أن نوجه جهودنا إلى الهجوم على ألمانيا نفسها . .

وأدركنا كذلك أن هذا الطلب قد يكون أول دليل على التعاون المباشر مع حلفاء الغرب فى الميدان . . فينبغى أن نجعله بشيرا بتعاون أكبر . لذلك لم أتردد فى أن أطلب من الجنرال فرانسيس دى جويجان رئيس أركان حرب الجنرال مونتجومرى أن يتيح للزوار الروس فرصة زيارة الجبهة المقابلة لـكاسينو Cassino حيث كانت قواتنا مشتبكة فى قتال عنيف . . وأن يتأكد من مشاهدتهم الفعلية لعمليات القتال .

ولقد نجحت الرحلة من وجهة نظرنا نجاحا ليس له مثيل . وما أظنها أخفقت فى تخفيف رأى الروس فى أن حملة إيطاليا إنما كانت « استعراضا ثانويا » . فلقد صرح لى أحد الضباط الروس عقب عودته من هذه الرحلة بقوله :

« إنى أستطيع أن أموت من أجل أمن روسيا فى روسيا فى أية لحظة . . ولـكنى لا أجد داعيا لأن أجىء إلى إيطاليا وأفعل نفس الشىء ! ! » .

ومبلغ علمى أن هذه كانت أيضا المرة الوحيدة التى طلبوا فيها زيارة الجبهة الايطالية . . وقد كانت أيضا المرة الوحيدة التى اشتركت فيها اشتراكا مباشرا فى لجنة البحر الأبيض المتوسط . إلا أننى ـ رغم ذلك ـ كنت أقابل الروس بين الفينة والفينة إذ كانوا نازلين بالقرب من معسكرنا فى الجزائر . وجعلتنى المهام التى كنت أكلف بها على إلمام كبير بالمشاكل السياسية التى كانت تبرز فى تحديد الأسس التى تقوم عليها الحـكومة الايطالية بعد الحرب .

ولم تسنح لنا الفرصة سواء فى افريقيا أو بعد ذلك لانشاء علاقات شخصية ودية

مع الروس كتلك التى كانت بيننا و بين البريطانيين والفرنسيين . ولا شك أن اللغة كانت أحد الحواجز التى وقفت عقبة فى هذا السبيل .

على أنه يبدو لى أن العقبة الكبرى كانت فيما تعودته روسيا من أن تنظر بعين الشك إلى كل رجل من موظفيها تنشأ علاقات ودية بينه و بين أى أجنبى أيا كانت جنسيته .

وذات ليلة دعانى الضباط الروس لتناول العشاء فى مقرهم . وكنت الأجنبى الوحيد فى العشاء معهم . وجرى بيننا حديث غير رسمى بالغوا فى تأكيد سريته إذ كانوا يضعون الوسائد على جهاز التليفون ليقضوا على كل احتمال فى أن يستعمل لتسجيل الحديث .

وقد أحضر الروس خدمهم معهم إلى الجزائر . وكانت تشرف على مأدبة العشاء روسية شقراء فارعة الطول اسمها « فاليا » .

وحسبت أنها لا تتكلم الانجليزية التى قلت بها لأحد الضباط الروس « يا لها من فتاة مليئة ! ! » . . فاذا بها لا تتمالك نفسها وترد فى انجليزية سليمة « إيه ؟ ! وهل أنت الرشيق ؟ » .

ولما كان اهتمامى محصورا فى شئون الحرب قبل أى شىء آخر . . فانى لم أنغمس إلا قليلا فى المناقشات السياسية التى كانت تجرى فى لجنة البحر الأبيض المتوسط . وكان مستر روبرت همفرى المستشار السياسى للجنرال إيزنهاور هو الذى يتولى أمر هـذه المناقشات .

وفى مؤتمرات أركان الحرب بدأت أشتم رائحة الخلاف الجوهرى بين الروس والدول الغربية حول تطبيق معنى كلمة الديموقراطية .

ولا شك أننا إذ نستعرض الآن تلك الأحداث التى كانت تجرى وقتذاك ، ندرك فى سهولة ما كان للروس من أغراض سياسية فى إيطاليا . . الأمر الذى كان يصعب علينا إدراكه فى ذلك الحين .

فقد كنا نحن الغربيين نصر على أن ننشىء فى إيطاليا حكومة تقوم على أوسع أساس من الديموقراطية وهذا ماجعلنا نقبل اشتراك الشيوعيين فى الحكومة الايطالية . بل نقبل أيضا عودة بالميرو توليانى الزعيم الشيوعى الايطالى الذى كان فى موسكو آنذاك وأن نسهل له هذه العودة .

ولقد كان من العسير علينا أن نرفض اشتراك الشيوعيين مهما كنا نعارض ذلك فيما بيننا . . إذ كانت الجماعات الشيوعية العسكرية المنظمة وخاصة فى مناطق إيطاليا الشمالية الصناعية من أهم عوامل الخلاف بين إيطاليا وألمانيا . وكان الشيوعيون فى إيطاليا النواة الصلبة لحركة المقاومة الموالية للحلفاء وكان اشتراكهم فى حكومة إيطاليا الجديدة على أساس التعاون والائتلاف .

وفى الفترة التى كانت تدور فيها المعركة الايطالية ، والتى عبر فيها الروس نهر الدنيبر واستردوا مدينة كييف وواصلوا زحفهم غربا ، عقد مؤتمران ثلاثيان . . أولهما فى موسكو فى اكتوبر عام ١٩٤٣ بين وزراء خارجية الدول الكبرى الثلاث . وكان من أهم قراراته إنشاء لجنة أوربية استشارية من ممثلى روسيا وبريطانيا وأمريكا ويكون مقرها لندن .

والثانى فى طهران فى ديسمبر من نفس العام (١٩٤٣) بين الرئيس روزفلت ومستر تشرشل والمارشال ستالين ، فكان أول اجتماع للثلاثة الكبار بعد طول انتظار .

وكان من نتائج هذا الاجتماع واجتماع آخر سابق له فى القاهرة بين ممثلى بريطانيا وأمريكا أن اتخذ قرار بأن يدخل حلفاء الغرب أوربا وذلك بشن هجوم على فرنسا عبر القنال الانجليزى فى أواخر مايو أو أوائل يونية عام ١٩٤٤ . واختير الجنرال إيزنهاور قائدا عاما لهذا الهجوم . وهنا صحبته مرة أخرى رئيسا لأركان حربه .

ولم يلق على عاتقى أية تبعات مباشرة فيما يتعلق باللجنة الاستشارية الأوربية فى لندن . وكان ممثل أمريكا فيها هو مسترجون ونيانت السفير الأمريكى فى لندن . وكان ونيانت دائم الاتصال الشخصى الوثيق بى وبالجنرال إيزنهاور ، وكنا من جانبنا نكن له الود .

وكان ونيانت شديد الثقة كبير الأمل فى أن تتعاون روسيا وأمريكا فيما بعد الحرب ، وإن كان موقف زميله الروسى جوزيف يذهله أحيانا إلا أنه كان فى النهاية يعزو العناد الروسى إلى عدم معرفة الروس بنا وإلى شكهم فى نوايانا .

وكان من أول أهداف لجنة البحر الأبيض المتوسط تحضير نصوص تسليم ألمانيا بدون قيد أو شرط . وكم كان مدهشا أن تكون هذه النصوص قد تم تحضيرها قبل أن نعبر القنال الانجليزى وننزل إلى البر على ساحل نورماندیا . فلقد وصلت نسخة من هذه النصوص إلى مكتبى فى القيادة العليا للحلفاء فى أوربا قبل نحو أسبوع من اليوم المحدد لبدء هجومنا . ولكنى لم أعرها إلا فحصا عابرا ، ذلك لأننى كنت أولا مشغولا فى المشاكل الأكثر استعجالا . وثانيا لأنى كنت أرى أن فحصها يشبه عد الكتاكيت قبل إفراخ البيض . وثالثا لأنها جاءتنى مباشرة من لجنة البحر الأبيض ولم تجىء عن طريق لجنة رؤساء أركان الحرب المتحالفة .. فحسبت ـ من أجل هذا السبب الأخير ـ أنها ليست بعد فى الصيغة النهائية التى وافقت عليها الحكومات الثلاث .

وقد أدى تقصيرى فى الاعتناء بقراءتها وتفهم فحواها إلى اضطرارنا لبذل مجهود كبير كان فى الوسع توفيره . . وذلك بعد نحو سنة عندما احتجنا إلى هذه الوثيقة على أثر هزيمة الألمان وابداء استعدادهم للتسليم . . فقد نسيت تماما وجود وثيقة لجنة البحر الأبيض وكذلك نسيها أفراد أركان حربنا . وإزاء مواجهتنا بمشكلة التسليم الذى كان وشيك الحدوث انكببنا على العمل المستمر ثلاثة أيام بلياليها فى مركز القيادة العليا لقوات الحلفاء فى أوربا وذلك لتحضير شروط التسليم . ثم بعثنا بها إلى حكومات روسيا وبريطانيا وأمريكا لاعتمادها فجاء الاعتماد سريعا ونفذت عند تسليم الألمان فى ريم .

وحدث بعد ذلك بأربعة أيام أو خمسة أن كنت أتكلم تليفونيا مع السفير ونيانت فسألنى عن سبب عدم استعمالنا لنسخة اللجنة . وهنا فقط تذكرت النسخة التى كانت اللجنة بعثت بها وقلت له إننى لم أكن أحسبها قد اعتمدت من الحكومات الثلاث فأكد لى أنها كانت قد اعتمدت منها جميعا .

ولم يثر الروس أى جدال حول الشروط البديلة . ولكنهم عندما اجتمع قواد جيوش الحلفاء فى برلين كمجلس للاشراف على ألمانيا بعد التسليم استعملوا نسخة اللجنة كأساس فى أبحاث المجلس لأن الشروط التى جاءت فيها أكثر تفصيلا من الشروط البسيطة التى وضعت فى مركز القيادة .

وخلال حملتنا على فرنسا وألمانيا لم يكن للقيادة العليا لحلفاء الغرب إلا قدر ضئيل من الاتصال المباشر بالاتحاد السوفيتى أو ممثليه . وكانت المشاكل الاستراتيجية يعالجها الثلاثة الكبار أنفسهم . وفقط فى المرحلة النهائية عندما أوشكت الجيوش

الأمريكية والروسية على أن تتقابل وتتصل ببعضها ، وجدنا من الضرورى إرسال بعثة عسكرية إلى موسكو لتنسيق العمليات الحربية .

وكانت البعثة برئاسة سير مارشال تيدر نائب القائد الأعلى يرافقه جنرال بل رئيس أركان حرب العمليات وعدد من الضباط من أركان حرب القيادة العليا .

وكان الغرض من هذه البعثة أن تحل عددا من المشاكل المعقدة . وكانت لجنة البحر الأبيض قد حددت فى هذا الحين مناطق الاحتلال المستقبلة فى ألمانيا. إلا أننا كنا قد دخلنا إلى أكثر من مائتى ميل فى منطقة روسيا المستقبلة . ونظرا لصلاتنا المحدودة مع الاتحاد السوفيتى والصعوبة البالغة فى مواصلاتنا ، لم نكن مدركين تماما لمدى رد الفعل عندهم حينما نلتقى بهم وجها لوجه . فساءلنا أنفسنا مثلا هل سيتوقفون عن الزحف عندما نتقابل أم سيصرون على التقدم حتى حدود منطقة احتلالهم ؟ وكيف سيتعرف كل منا على السيارات المصفحة للآخر وقواته من الجو ؟ وكيف نحقق التنسيق بين الجيوش الروسية وجيوش الحلفاء إذا ما اشتبكت جنبا إلى جنب فى قتال مع الألمان ؟

ولقد استقبلت بعثة تيدر بحرارة وعولجت المشاكل التى عرضتها ببساطة وسرعة وعاد رجالها راضين رضاء كاملا .

وعندما تقابلت الجيوش بعد ذلك على نهر الألب فى المرحلة الختامية ، كان الحماس على أشده فى الجانبين ، خاصة بين الضباط الصغار و بين الجنود فى الشرق والغرب على السواء .

وكانت لحظات حرجة للفتنانت الأمريكى الشاب الذى كان أول من قابل الروس

ثم أدرك أنه ليس لديه علم أمريكى يميز فصيلته ، فأسرع هو ورجاله إلى صنع علم من القماش .. وقد قدموا هذا العلم فيما بعد إلى الجنرال إيزنهاور كتذكار للحرب .

ودار بينى و بين مستر تشرشل فى هذه الآونة حديث تبدو فيه روح القلق . فخلال رحلة لى سريعة إلى لندن تناولت الغذاء معه وحدنا فى مقر رئاسة الوزارة ، وكان شديد القلق بالنسبة للمستقبل والمصاعب التى لاقيناها فى سبيل الوصول إلى اتفاق مع الروس بشأن مستقبل أوربا .

ثم قال فى تجهم وهو يناقش انسحاب الحلفاء الغربيين المفاجىء من المنطقة الروسية فى ألمانيا إلى حدود المنطقة التى سبق أن حددتها لهم لجنة البحر الأبيض، قال فى تجهم و بصرامة إن انسحاب قوات الحلفاء من هذه المنطقة الشاسعة فى ألمانيا التى غزوها بدمائهم و بشجاعتهم دون أن نصل إلى تسوية نهائية مع حلفائنا الروس فى كثير من المسائل الهامة . . سوف يلقى بظل كثيف على جميع أوربا .

ولم يسعه أن يغفل الحقيقة فى أن الحرب قد تنتهى وجميع عواصم أوربا الوسطى فى أيدى الروس .

على أنه مما أراح التفكير قليلا إشارته فى ابتهاج زائد إلى أنه لو أن أحدا أنبأنا منذ سنتين بأن الجيش الروسى يقترب من الريم لكنا جد سعداء .

وقبل أن تتوقف الحرب نهائيا فى ألمانيا . . سنحت لنا فرصة لكى نثبت سلامة طويتنا إزاء الاتحادالسوفيتى . ففى أواخر أبريل وأوائل مايو تصدعت الجبهة الألمانية وفتحت ثغرات واسعة فيها من الشرق والغرب . وكانت القوات الأمريكية والروسية تتقدم سريعا فى عزم وتصميم . ولم يكن النازيون حتى بعد انتحار هتلرقد

كفوا عن العمل على تفريق شمل الحلفاء وعلى أن يضربوهم ببعض وأن يلعبوا بكل ضد الآخر .. ووصلوا فى ذلك إلى حد أن تقدموا يعرضون استعدادهم للتسليم للبريطانيين والأمريكيين دون الروسيين . ولكن القائد العام رفض ذلك بحزم و بسرعة وأرسل إليهم إنذارا نهائيا بالتسليم فى ظرف اثنتى عشرة ساعة و إلّا فسوف نغلق عليهم الجبهة ولا نأخذ أسرى أخرين .

وخلال هذه المفاوضات كان الميجر جنرال إيفان سسلوباروف الملحق العسكرى لروسيا فى باريس ورئيس بعثتهم لدى القيادة الأوربية العليا ، يحاط علما بكل شىء . وهو الذى حمل النصوص المعدلة إلى موسكو لإتمامها . ووقع فى ريم وثيقة التسليم كشاهد .

ومنذ الحرب ، وضحت الأدلة على أن الروس كانوا يعتقدون أو على الأقل يتوقعون أننا سنتم هذا الاتفاق الثنائى مع ألمانيا . وهذا يحدونا إلى التساؤل فيما عسى كان الروس سيفعلونه لو أن الألمان قدموا هذا العرض إليهم بدلا منا .

وبانتهاء الحرب وخضوع ألمانيا لإشراف الحلفاء ظللت رئيسا لأركان الحرب فى ألمانيا حيث كانت اتصالاتنا الرئيسية مع المارشال زوكوف والجنرال سوكولوفسكى اللذين كانا موضع إعجابنا وتقديرنا البالغين واللذين كنت أعتقد أنهما يمكن أن يكون رجلين عظيمين فى أية دولة .

ولقد تأثرت كثيرا بالرجلين و بكبار معاونيهم لا من حيث كفاءتهم فقط بل أيضا من حيث صراحتهم واستقامتهم فى مواقفهم .

وعلى الرغم من عائق اللغة (ومن الصعب أن تشعر بأنك قريب من رجل

لاتتحدث معه إلا عن طريق مترجم) فاننى اعتقد أننا وصلنا معهم إلى أساس صادق من الثقة والتفاهم المتبادلين .

وكان المارشال زوكوف مخلصا فى تصريحه بأن السلم العالمى يتوقف كلية على مقدرة الروس والأمريكان فى استمرار التعاون والتفاهم اللذين وصلا إليهما خلال الحرب .

ومع ذلك .. ورغم العواطف الحارة التى كنا نشعر بتبادلها بيننا وبين المارشال زوكوف والجنرال سوكولوفسكى ، فقد كان لا يزال بيننا بعض البعد فى المسائل التى نبحثها .

وعندما كنا نستعد للاحتفال بالمارشال زوكوف وأركان حربه فى فرانكفورت ، وجدنا أنفسنا فجأة أمام مشكلة خطيرة ليلة وصولهم إذ اكتشفنا أنه ليست لدينا أعلام روسية . فاشتغلت الخياطات أربعا وعشرين ساعة كاملة فى إعداد أعلام مناسبة لتزين بها المطار وشوارع المدينة عند وصول الضباط الروس .

وقد قوبلوا فى المطار بحرس شرف مكون من أورطة من الحرس البريطانيين وأورطة من المشاة الأمريكيين وثالثة من جنود المظلات الأمريكية . وكنا قد أقمنا تجربة لهذا الاستقبال حتى يعرف الجنود جيدا أين يسيرون دون أن يتعارض سيرهم مع سير الحركة فى المطار . وفى هذه الزيارة ألقى المارشال زوكوف كلمة أشاد فيها بحرارة بمجهودات الجنرال إيزنهاور فى الوصول بالقيادة الموحدة إلى ما وصلت إليه وأعرب عن « أمله فى أن يستمر هذا الاتحاد بين ممثلى الحلفاء الأربعة فى مجلس الإشراف على ألمانيا » .

فرد الجنرال إيزنهاور بعبارة ترددت فى جميع أنحاء العالم إذ قال باسم القوات

المتحالفة « إننا سوف نحصل على السلم حتى ولو اضطررنا لأن نحارب من أجـله »

وفى حمية النصر الأولى كانت ثمة فترة من التعاون الوثيق بين الحلفاء . وقد بلغ ذروته تقريبا قبيل انعقاد مؤتمر بوتسدام الذى حضره الرئيس ترومان والمارشال ستالين ومستر تشرشل (الذى حل محله مستر كليمنت أتلى بعد هزيمة المحافظين فى الانتخابات التى أجريت أثناء انعقاد المؤتمر) .

بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى بدأنا نلاقى بعضا من وخز الابر والمضايقات الصغيرة إلى أن ووجهنا فى النهاية بعدة حوادث خطيرة كانت مقدمة لانقسام الحلفاء انقساما نهائيا وكبيرا حول موضوع ألمانيا كله .

وكان أول توقع منا للمصاعب فى خطاب أرسله رئيس أركان حرب الروس فى برلين مسجلا فيه قائمة من نحو مائتى حادثة لجنودنا خرقوا فيها الحدود أو خالفوا التعليمات الخاصة بالممر الجوى .

وكانت كلها حوادث لا أهمية لها ، إلا أن لهجة الخطاب الروسى هى التى ضايقتنى . فأرسلت ردا غير رسمى لرئيس أركان الحرب الروسى أقول له فيه إننى مستعد ـ إذا لزم الأمر ـ لأن أبعث إليه بقائمة مقابلة بحوادث خرق الجنود والأفراد الروس للحدود ، ولـكنى أعتقد أنه من غير المفيد للحلفاء أن يبدءوا فى مثل هذه المهاترات . ثم عبرت له عن أملى فى أن نتحاشى هذا النوع من الرسائل . ومثل هذه المسائل يمكن معالجتها بطريق مباشر وغير رسمى .

فرد علىَّ الجنرال سوكوفوسكى نفسه بأنه كان يود أن يعالج الأمر بطريق غير رسمى لولا أن التقارير الخاصة بمخالفات الممر الجوى وضعتها وحدات المدافع المضادة للطائرات والرادار .. وهذه ليست تحت قيادة المارشال زوكوف بل تعمل مباشرة تحت قيادة

أركان الحرب العامة فى موسكو . لذلك لم يكن بد من تقديم تلك الشكوى إلى وإرسال ردى عليها إلى موسكو .

ويسعدنى أن أذكر أنه خلال باقى إقامتى فى ألمانيا لم يصلنا من القيادة الروسية أى تقرير من نوع هذا التقرير .

وكانت أخطر مشكلة لنا مع الحكومة الروسية ـ خلال وجودى بألمانيا ـ تلك التى كانت متعلقة بشأن تنفيذ اتفاقية الحلفاء فى يالتا والتى أكدت ثانية فى بوتسدام.. وهى خاصة بعودة المشردين (الأسرى والعمال المسخرين وغيرهم) إلى ديارهم .

وكان مؤسفا أن نجد تفسيرات الروس مخالفة كل الاختلاف لتفسيراتنا للاتفاقية . لقد كنا نعتقد أن علينا أن نبحث تسهيل العودة لروسيا لمن يرغبون فى العودة إليها من رعاياها يضاف إليهم آخرون كأولئك الذين اتهموا بارتكاب جرائم حرب . ولم نكن قطعا ننتوى الخروج على الموقف التقليدى لأمريكا فيما يتعلق بايواء اللاجئين السياسيين الذين وجدنا منهم الألوف فى ألمانيا . وكثير من هؤلاء من دول البلطيق التى أدمجت فى الاتحاد السوفيتى منذ بداية الحرب ،وآخرون من بولندا ورومانيا اللتين أصبحتا تابعتين لروسيا أخيرا .

وحدث ذات يوم أن وجدتُ إحدى الوحدات الأمريكية المتحمسة فى تنفيذ واجباتها تستعمل القوة لتحشد فى القطار بعضا من الروس المشردين الذين رفضوا العودة طواعية إلى الاتحاد السوفيتى : و بعض هؤلاء كان قد لجأ إلى إحدى الكنائس وراح يتوسل إلى الأمريكان ألا يعيدوه ثانية إلى روسيا . ولما لم تجد توسلاتهم نفعا انتحر واحد منهم أو اثنان .

فأذعت فى الحال تعليمات بأننا لن نكره أحدا على العودة ما عدا مجرمى الحرب الحقيقيين . ذلك لأنه مما يناقض مبادئنا تماما أن نعيد بالقوة أحدا من هؤلاء الذين

لا يرغبون فى العودة أوالذين يشعرون بأنهم سوف يُضطهدون بسبب آرائهم السياسية .

وكان الروس ، لأسباب خاصة بهم ، يصرون على ترحيل كل المشردين الذين ولدوا فى مناطق أصبحت الآن جزءا من الاتحاد السوفيتى و إعادتهم إلى مواطنهم الأصلية .

وكانت لدينا أسباب عادلة وكثيرة للشكوى من مسلكهم العدائى الذى لم يقيموا فيه وزنا للحلفاء . فكانوا دائبى التغيير فى تكوين لجنتهم الخاصة بعمليات الترحيل وكان ظاهرا جدا أنهم أحضروا أشخاصا أكثر من العدد الذى كان متفقا عليه .

وكان لدينا فى هذا الوقت نظام للبطاقات فى فرانكفورت كنا نعتقد أنه محكم للغاية . وكان جميع الأشخاص يتناولون الطعام فى «ميس» خاص . وكنت أعتقد أن هذا قد يساعدنا على اكتشاف ما إذا كانت البعثة الروسيةقد زاد عددها وكيف يحصل الأشخاص غير المسجلين فيها على طعامهم .

ودل البحث على أنهم كانوا يستعملون بطاقاتهم المعتمدة عدة مرات فى كل وجبة . وبهذه الوسيلة كان بوسع الروس المارين بالمنطقة الأمريكية أن يبقوا فيها لأجل غير مسمى دون علمنا .

فأنشأنا نظاما جديدا للبطاقات لكى نضع حدا لذلك .

ولقد أمعنت التفكير مرات عديدة فى السبب الذى من أجله كان الاتحاد السوفيتى يشن هذه الحملة القوية النشطة ليستعيد جميع المشردين الذين ولدوا فى روسيا أو فى بلاد أصبحت الآن جزءا منها ، حتى لو كان ذلك على الرغم من إرادة هؤلاء المشردين . فأدركتُ الحقيقة التى تدعوه إلى هذا الموقف، وهى أن المسئولين الروس كانوا يعرفون تماما النتيجة الحتمية من وجود آلاف من أمثال هؤلاء الأشخاص خارج الاتحاد السوفيتى وهم الذين يستطيعون أن يكشفوا عن حقائق الوسائل الروسية وأن يطلعو عليها

وأن يحيطوا بسير الأمور ومجريات الأحوال والظروف فى الاتحاد السوفيتى والدول الضالعة معه أو التى تدور فى فلكه .. وذلك بوسائل ممكنة شتى مثل اتصالهم أو اتصال ذويهم بهم .. الخ . وهكذا يدرك المسئولون الروس إمكانيات الضرر الذى سيلحق بالدعاية والسياسة الروسية فى الخارج نتيجة لترك هؤلاء الألوف فى الخارج . ومن هنا كان ذلك الموقف من الاتحاد السوفيتى فى مسألة المشردين .

كذلك خرجت من تجربتى الطويلة فى موضوع هؤلاء المشردين بأنه من الخطأ الجسيم التقليل من أثر الأفكار الاقطاعية التقليدية التى لاتزال تسود الاتحاد السوفيتى. فالفكرة الروسية عن العلاقة بين الدولة ورعاياها تظهر واضحة فى تحريم الزيجات بين الروس والأجانب وفى رفض السماح للهجرة أو الاعتراف بالاغتراب ثم فى عزل الجمهور السوفيتى عن الأجانب .

ولقد تعقبتنى مشكلة المشردين طوال إقامتى فى ألمانيا . وكنت سعيدا إذ تخلصت منها ـ أو هكذا تخيلت ـ عندما نقلت وعدت إلى واشنطن .

هذه كانت مصادماتى وتجاربى السابقة مع الروس .. وهى التى فكرت فيها وأنا أبحث عرض مستر بيرنز وزير الخارجية .

وكنت أعرف طبعا أننى أستطيع الاعتماد على مستر بترسون وزير «الحرب» وعلى الجنرال إيزنهاور فى الحصول على المشورة الصائبة . إلا أننى كنت أحس بخيبة أمل عندما كان عقلى الباطن يخيل لى أنهما سيدفعاننى إلى الاعتذار .

على أن الرجلين ـ وكلاهما يقدر الواجب تماما ولا يعتذر عن أى عمل يكلف به أو واجب يطلب منه وبالتالى لا يشجعان مرءوسا لهما على أن يعتذر ـ قال لى كلاهما بأن أقبل وأنه يجب ألا أرفض .

ونصحنى الجنرال إيزنهاور أكثر من ذلك بأن أعطى نفسى عاما أو عاما ونصف لأحاول «إزالة الغشاء» على حد تعبيره ، فاذا لم أنجح كان علىّ أن أدع مكانى لغيرى يحاول النجاح فيما لم أنجح فيه . وقال إنه على أى الحالات ينبغى ألا أبقى فى موسكو أكثر من عامين .

وبدا لى أن فى هـذا الرأى حسما للأمر . فأبلغت وزير الخارجية قبولى المنصب .

وفى فترة استعدادى لهذا العمل الجديد تعرضت لأشد برنامج تعليم مزدحم فى حياتى .فكنت أسير على جدول يومى خلال تلك الأسابيع الأخيرة لى فى واشنطن.. وكان هذا الجدول يستغرق ثمانى عشرة ساعة كل يوم . ذلك لأنه لم يكن علىّ أن ألم بالمسئوليات التى تنتظرنى فى عملى الجديد فحسب بل كان علىّ أيضا أن أقوم بعملية تسليم أعمالى فى وزارة الحربية .

وكنت أقابل يوميا فى وزارة الخارجية المختصين الذين يتولون توجيهى وإعدادى للعمل الجديد . وكان من بينهم موظفو قسم أوربا الشرقية الذى كان يرأسه وقتذاك مستر فريمان ماتيوس ، ومستر ديربرو الذى كان متوليا قسم روسيا ثم عين فيما بعد مستشارا فى سفارتنا بموسكو . وكان مستر تشارلز بوهلن الذى كان واحدا من خبراء وزارة الخارجية الرئيسيين فى اللغة الروسية والذى عمل مترجما للرئيس روزفلت ثم الرئيس ترومان فى المؤتمرات الثلاثة الكبرى فى طهران ويالتا وبوتسدام.. كان يزودنى بنصائح ثمينة لا تقدر، وفضلا عن ذلك أتيحت له فرصة التحادث مع الرئيس ترومان مرتين .. وكانت إحداهما طويلة ومتحررة من الرسميات ملئية بالمعلومات التى زودنى بها الرئيس .

وفى حديثى الأخير مع الرئيس أفصح لى عن نواة لفكرة يبحثها . . وهى التى نمت و تطورت فيما بعد إلى ميثاق شمال الاطلنطى .

وكان معروف أن من بين مشاغل الرئيس الكبرى الرغبة فى وضع الأمور مع الاتحاد السوفيتى وضعها الصحيح ، ولكن دون أن يترتب على ذلك مزيد من التضحية فى مركز ومصالح الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين .

وكان معروف أيضا أن الرئيس قد عوّد نفسه على مواجهة الموقف فى وسط وشرق أوربا منذ أصبح رئيسا للهيئة التنفيذية ، وأن معلوماته عن المسائل الخارجية كانت واسعة وشاملة .

وخلال حديثنا أخرج من مكتبه خريطة لحوض الدانوب أوضح عليها آراءه لحل المشاكل فى هذه المنطقة الحيوية التى كانت تتناقض وتتعارض فيها السياستان الشرقية والغربية يوميا .

وطلب منى الرئيس أن أقابل المارشال ستالين بأسرع ما يمكن بعد وصولى إلى موسكو . وأعطانى خطابا إليه يدعوه فيه لزيارة الولايات المتحدة ضيفا شخصيا على الرئيس . وكذلك طلب منى أن أوضح جيدا لستالين وللمتصلين به ممن يشرفون على «الكرملين» أن الولايات المتحدة الأمريكية قد عقدت اتفاقات يالتا و بوتسدام باخلاص كامل وأنها تأمل فى أن تنفذ هذه المواثيق أيضا فى إخلاص كامل . على أنه طلب منى أيضا أن أوضح جيدا للكرملين أن تمسكنا التام بهذه الاتفاقيات سوف يصبح متعذرا نتيجة لعدم الإكتراث الدائم الذى تبديه روسيا نحو التزاماتها . وكان شعوره الذى تأكدت منه أنه إذا ظل الضغط الروسى مستمرا فلا مناص من اضطرار الدول

الغربية إلى التقارب أكثر فيما بينها فى هيئة دفاع ذاتى مشترك ، وفى هـذه الحالة ستجد الولايات المتحدة ، باعتبارها أقوى هذه الدول ، أن عليها أن تتبوأ القيادة .

وكانت لى عدة أحاديث طويلة مع مستر افريل هاريمان الذى كان عائدا لتوه من موسكو بعد عامين ونصف ، خبر فيها قمم ومنحنيات الصداقة الروسية .

كذلك تحادثت مع مستر برنارد باروخ الذى كان شاغله الأول هو المشكلة الحيوية مشكلة الاشراف على الطاقة الذرية . ورغب فى أن أبذل مجهودا كبيرا للتأثير على المسئولين الروس و إقناعهم بأن الأمر كما قال مستر باروخ فى خطابه المشهور الذى افتتح به المناقشات الذرية « سباق بين السرعة والموت » .

وخلال فترة التدريب هذه ، قابلت مستر تشرشل مرة واحدة إذ تصادف أن ذهبت إلى نيويورك حيث كان هو فيهـا ونزلت فى نفس الفندق الذى كان ينزل فيه . وقد كان هـذا إثر خطابه المشهور عن الستار الحديدى الذى ألقاه فى «فالتون» بميسورى ، والذى استنـكره الشيوعيون وذوو المبادىء اليسارية . ولو أنى لم أكن راضيا عن كل الآراء التى قال بها تشرشل فى هـذا الخطاب إلا أنى كنت شديد الرغبة فى مقابلته قبل مغادرتى نيويورك لما كنت أشعر به نحوه من محبة واحترام أنا وزملائى فى القيادة العليا خلال صلاتنا الوثيقة به فى أثناء الحرب . فطلبت جناحه بالتليفون وسألت عما إذا كان ممـكنا أن أزوره زيارة غير رسمية . فأجابنى بأن أصعد إليه فى الحال لأنه يرغب فى التحدث معى بضع دقائق قبل وصول لجنة الاستقبال الرسمية التى ستصطحبه إلى حفلة غداء حيث كان سيلقى خطابا آخر .

وكان مستر تشرشل ظاهر الاضطراب بسبب الاضراب خارج الفندق . وكانت

هذه أول تجربة له فى أمريكا يُقابل فيها بشعور غير شعور الصداقة . ولـكنه كان ثابت الإيمان بصحة تحليلاته فى «فالتون» وقال لى « اصغ إلى كلامى ...فى عام أو عامين سيقول كثيرون من نفس هؤلاء الذين يستنـكرون آرائى الآن : كم كان تشرشل صائبا ؟ ! » .

ثم ناقش فى تأثر عميق العلاقات الوثيقة التى تدعمت بين الولايات المتحدة و بريطانيا خلال الحرب وقال « لا تسمح لنفسك مطلقا بأن تقتنع بأن ثمة أى صدع بيننا مهما يقل المتطرفون من الجانبين فلـكلينا نفس مبادىء الشرف والحرية والذوق والتحرر .. فعلينا أن نحتفظ باتحادنا الذى صهرته الحرب والذى لم يسبق له نظير فى التاريخ » .

وأخيرا . . بلغت حد التخمة فيما زودنى به الذين تولوا توجيهى وتدريبى . ففى كل صباح كان ثمة رسول يوزع على مكتبى مجموعة من الـكتب والوثائق . وكانت دراسة الصباح تتلوها مؤتمرات بعد الظهر . وظل هذا سائرا يوما بيوم حتى أحطت بكل شىء .

ولقد أحدثت الحرب تغييرا كبيرا فى وضع روسيا الدولى . ولم يكن هذا التغيير نتيجة لأى تطور داخل روسيا نفسها . . و إنما كان نتيجة لتحطم قوى الدول المجاورة لها . فلقد وَجَدت نفسها لأول مرة فى تاريخها بدون منافس واحد قوى فى مجموعة الدول الأوربية البرية ، وذلك نتيجة للانهيار الشديد الذى أصاب القوة الرئيسية المنافسة لها ، وهى ألمانيا التى تواجهها فى حدودها البرية . . ونتيجة للاشراف والسيطرة اللذين تمـا لها على مساحات شاسعة تشمل بولندا وألمانيا الشرقية ورومانيا و بلغاريا ويوغوسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وقسما من النمسا ، وهى مساحات كانت تضم

أكثر من مائة مليون نسمة . ومعظمها لم تكن قوة روسيا قد امتدت إليها مطلقا من قبل .

وقد أبقت روسيا ـ عن قصد ـ الحدود الحقيقية لأطماعها غير واضحة،معتمدة فى تحقيقها على المستقبل .

ونتجت مع هذه الزيادة فى قوة الاتحاد السوفيتى زيادة فى مسئولياته . فأصبح أمام العالم مسئولا عن سعادة ورفاهية هؤلاء الذين أدخلهم فى نطاقه ومسئولا عن تنمية مصادر ثرواتهم وتنظيم علاقاتهم الصناعية والثقافية وعن تأمين دفاعهم العسكرى .

وكانت كلمة « الديموقراطية» واسعة الاستعمال فى يالتا و بوتسدام . وكان السؤال الذى يتردد هو ما إذا كانت الديموقراطية عند الحكومة السوفيتية تعنى نفس المدلول الذى تعنيه عند الحكومات الغربية ؟ وما إذا كانت روسيا ستضطلع بنجاح بالتزاماتها فى الاتفاقات المعقودة .

وما سجل حتى الآن بالنسبة لهذه الاتفاقات لا يشجع أبدا . وقد ظل يكمن خلف سياسة روسيا منذ قرون شعور مزمن بعدم الاطمئنان الذى يشعر به أناس زراعيون يقيمون فى سهل مكشوف بجوار قبائل بدوية شرسة .

فهل سيظل هذا الشعور هو الصورة الدائمة للنفسية الروسية ؟ وهل تستطيع هذه النفسية أن تعين على امتداد هذه المساحات الجديدة شرقا وغربا و بنجاح ؟ و إذا كانت ستنجح فى البداية ، فهل ستعرف أين تقف ؟

أليس من المحتمل أن تدفعها طبيعتها ـ فى عناد ـ إلى الدخول فى معركة لكى تتحقق لها السيادة الكاملة على شواطىء الأطلنطى والباسفيك ؟ أيا كان الأمر فقد

بلغ الاعتقاد بالأمريكين أثناء الحرب إلى أن التعاون مع روسيا كما صورناه ، ممكن كل الامكان ، وإلى أن هذا التعاون يلزمه فقط إقامة علاقات شخصية طيبة مع قادة روسيا عن طريق المؤتمرات . ويرون أن الحل الوحيد لمصاعبنا الحالية هو فى أن تسعى الولايات المتحدة لايجاد الوسائل التى تدعم هذا التعاون وتؤكده وأنه إذا استحال ذلك فانهم يخشون حدوث النقيض .

وكان أكثر ما يخيفنا هو أن ينتهى الأمر إلى التسليم بأننا قاتلنا فى الحرب دون نتيجة وبانه لامفر من نشوب حرب أخرى ، ستكون كارثة على المدنية .

إلا أن رجال وزارة الخارجية الأمريكية ذوى الخبرة الطويلة بالاتحاد السوفيتى والاحاطة الكاملة بتاريخ روسيا القيصرية لم يكونوا يرون هذا الرأى وإنما كانوا يدركون أن الاتحاد السوفيتى إنما هو عاجز عن التعاون مع الحكومات الأخرى ، بالأسلوب الذى تتصوره عقول الأمريكين عند التحدث عن التعاون ، وذلك بسبب نظامه الخاص وفلسفته السياسية التى يسير عليها . ولا يرون فى مثل الاتصالات الشخصية بين الشعبين أنها كل ما يحتاجه قيام أساس عريض من الثقة والتعاون . فقد دلت تجاربهم خلال الاثنى عشر عاما من العلاقات الديبلوماسية بين البلدين على أن الجهود التى كانت تبذلها الولايات المتحدة وهى تأخذ دائما الخطوة الأولى فى السعى لتمكين الثقة بين البلدين ، كانت تُقابل دائما من الاتحاد السوفيتى بالريبة وعدم الاستجابة . . وهذا ما يتنبأ رجال وزارة الخارجية هؤلاء بأنه لن يكون ولا يمكن أن يكون سواه لأية جهود تبذلها الولايات المتحدة فى هذ الصدد .

والنتيجة التى وصل إليها هؤلاء الرجال هى أنهم إذ يرون استحالة بلوغ هذا النوع من التعاون الوثيق الصريح الذى يتوجه إليه الرأى العام الأمريكى ، فإنهم

يرون أنه ليس فى الحقيقة عاملا أساسيا بالنسبة لمستقبل السلام فى العالم .

وهم يعتقدون أن الحكومة الروسية تدرك ذلك جيدا وتدرك أنه فى الإمكان ـ رغم عدم وجود تعاون حقيقى ـ أن يتحقق استقرار معقول بين الدول الكبرى لعشرات السنين، وذلك بأن تحتفظ بتوازن معقول فى القوى بينها و بأن تدرك إدراكا واقعيا المصالح الحيويه المشتركة بينها .

وكنت أميل إلى أن أكون أكثر تفاؤلا من رجال وزارة الخارجية .. حدانى إلى ذلك وشجعنى عليه محادثاتى السابقة مع الضباط الروس الكبار .

وكان يبدو لى أنه بفرض استحالة الوصول إلى كل مانرجوه من ثقة و إخلاص فإن قدرا منه على الأقل سيكون ممكنا . وفى هذا القدر الكفاية لضمان تعاون طويل المدى .

وآمنت بأن أول عمل أساسى يجب أن يُعمل هو محاولة إعادة الثقة والتفاهم بين البلدين .

والنتيجة ، طبعا ، فى طيات المستقبل . والطريقة الوحيدة لمعرفتها هى فى أن أذهب وأرى وأحاول .

كان هذا هو شعورى ، وأنا أتأهب لمغادرة واشطن إلى موسكو .

الفصل الثانى

البعثة تبدأ

«لا يمكن لروسيا أن تفاخر باختراع ميكانيكى واحد صنعته فى بلادها أو قلدته من الخارج .. فكل مايملك الروس مستعار . ماعدا جوهم البئيس وحتى هذا يدفعون فيه نسبة فظيعة من الربا الفاحش لحمايتهم من شتائه وعوزه .

«.. إنهم يدخلون معاركهم برءوس أموال مقترضة ، ويحصلون على القروض ليمدوا سككهم الحديدية . وأحسن سفنهم الصغيرة مصنوعة فى انجلترا والولايات المتحدة . وكل فنونهم وحرفهم بالرغم من كونها متقنة وبالرغم من كونهم يبذلون فيها نشاطا حميدا ويحققون فيها درجة طيبة من النجاح . . إلا أنها محصول النبوغ الأجنبى ونسخ ثانية من اختراعات واكتشافات أناس أفضل منهم .

« .. وعندى أنه لايوجد شعب أكثر حاجة إلى الأجانب من شعب روسيا ثم لا يوجد شعب يحسد الأجانب مثل شعب روسيا .

« .. هذه الملاحظات .. ليست لها أى بواعث خاصة من الأمريكيين فعلى العكس للأمريكيين هنا مكانه عالية ، ومعروفون هنا ، ومعترف لهم بأنهم ليسوا أناس دعاية رغم كونهم جمهوريين »

[من رسالة «لمستر نيل براون» وزير أمريكا المفوض فى روسيا]
مؤرخة فى ٦ نوفمبر ١٨٥١

أثبتت الاستعدادات المادية للرحيل إلى موسكو أنهـا جد شاقة. فلم يكن الأمر مجرد استقلال طائرة للذهاب بهـا إلى موسكو نحو مايحدث عنـد الذهاب إلى باريس أو لندن أو بيونس إيرس . بل لابد من استعداد بالغ لاقامة طويلة فى العاصمة الروسية .

وقد أوضح التقرير الذى تسلمناه عن العمل فى سفارة موسكو والذى يسترشد به المستجدون فيها . . أوضح لنا وضوحا غير مشجع أننا لسنا ذاهبين إلى جنة من الرخاء

وبعد ثلاثين سنة من لبس الزى العسكرى إلا فى بعض مناسبات طارئة . . كان علىّ أن أقوم بجولة كبيرة وغالية فى محلات نيويورك لأشترى الملابس المدنية ، التى لم يكن عندى منها شىء تقريبا والحاجيات التى تلزمنى فى منصبى الجديد . . وكذلك ملابس وحاجيات زوجتى التى يلزمها كسيدة سفارة صوان ملابس أكبر وأرقى مما كان لها فى أى وقت فى حياتها مضى كزوجة لرجل عسكرى ذى إمكانيات متوسطة .

وما كنا نتوقع بادىء ذى بدء أن نشترى هذا القدر الضخم من الحاجيات التى قمنا بشرائها بعد أن وقعت عيناناً فى « التقرير » على الفقرة التالية :

فكرتان عامتان يجب أن يتقرر بناء عليهما مايتزود به القادم إلى الاتحادالسوفيتى:

---

(١) لاشىء يمكن الحصول عليه هناك .

(٢) الطقس بارد سواء داخل البيوب أو خارجها لفترة طويلة من العام .

وحوى التقرير بعد ذلك قائمة مفصلة بالمواد التى يحتاج إليها المقيم فى موسكو ولا يمكن الحصول عليها هناك وغالبا ما يغفلها الذاهبون إليها.

ولقد اخترت للعمل معى فى موسكو كلا من الميجور السابق رث برجز الذى كان

يشرف على كتائب المجندات فى الجيش والذى عمل معى فى شمال إفريقيا وفى القيادة الأوربية العامة والذى يعمل الآن لحسن الحظ فى الوزارة الخارجية ، والجاويش جريز الذى كان سائقى الخاص والجاويش ميريون بلازيجزاك الذى ولد فى أمريكا ثم عاش فى بولنده منذ الثانية عشر من عمره والذى أطلق سراحه من الاسر عند سقوط ألمانيا . وكان ذاقيمة بالغة إذ كان يتكلم الروسية كما كان قديرا فى مساعدته لمسزسميت فى تدبير شئون دار السفارة .

وعندما أذيع نبأ تحديد موعد سفرنا رجانا كل من لهم أقارب أو صدقاء فى موسكو أن نحمل إليهم بعض الهدايا مما كان نتيجته أننا حملنا طرودا تحوى كل شىء من بلاطى فرو .. إلى شموع الهيكل أرسل بها البعض للكنيسة الرومانية الكاثوليكة الصغيرة فى موسكو .

وأخيرا .. كان كل شىء جاهزا .

وفى ٢٤ مارس عام ١٩٤٦ بدأنا رحلتنا من مطار واشنطن. وكان فى توديعنا فريق من موظفى وزارة الخارجية ومن رجال الجيش وعدد قليل من مراسلى الصحف الذين عرفتهم وأحببتهم فى أوربا والذين كانوا كرماء بمجيئهم هذا ليودعونا .

ولم تهبط بنا الطائرة قبل برلين إلا مرتين اثنتين قصيرتين للغاية .

كانت الأولى فى مطار أورلى قرب باريس حيث تحدثت قليلا مع سفيرنا فى فرنسا حينذاك مستر جيفرسون كافرى .. وكانت الثانية فى فرانكفورت حيث جددت لبضعة لحظات صلاتى القديمة بضباط الجيش الذين فارقتهم عندما اعتزلت وظيفتى فى ألمانيا .

وفى برلين .. كان فى استقبالنا بالمطار أصدقاؤنا القدامى الأعزاء الجنرال كلاى وزوجته والسفير رو برت مرفى . وقدأمضينا الليل وكذا اليوم التالى ضيوفاعلى آل كلاى فى منزلهم بالمنطقة الأمريكية .

وقام بزيارتنا فى برلين زيارات رسمية كبار الرسميين الروس هناك وهم المارشال سوكولوفسكى ومستشاره السياسى والسفير سيمينوف .

وكنت سعيدا برؤية سوكولوفسكى مرة أخرى . وقد أبدى لى من الصداقة ما عهدته فيه من قبل ، إلا أنه كان متحفظا أكثر قليلا مما عهدته خلال أحاديثنا عند ما كنت نظيرا له كرئيس لأركان الحرب . وقام الرفيق سيمينوف السياسى الكفء والذكى الهادئ والذى يتكلم الإنجليزية ببراعة .. قام بترجمة ما قاله سوكولوفسكى عن ضرورة تفاهمنا وتعاوننا .

وكان الجنرال إيزنهاور قد أرسل معى هدايا إلى زوجة المارشال سوكولوفسكى فسألته عن العنوان الذى يمكننى أن أرسل إليها فيه هذه الهدايا بموسكو ، فتحاشى السؤال فى بادىء الأمر ، فلما كررته عليه أجاب بأن أبعث بها إلى ياوره فى قيادته ببرلين . فذكرت له أنها محزومة مع عفشى وأنه من غير الممكن استخراجها قبل الوصول إلى موسكو . إلا أنه رغم ذلك كرر إجابته بأن أبعث بهـا إلى ياوره فى برلين . وقد أدهشتنى هذه الاجابة منه . ولكننى اكتشفت فيما بعد أن الرسميين الروس لايحبون أو أنهم يهابون إعطاء عناوين عائلاتهم فى موسكو لأجنبى ذاهب إليها .

وقد يكون الباعث على ذلك هو خشيتهم أن يثير اتصال هـذا الأجنبى بعائلاتهم الشكوك فى المقامات العليا فى البوليس السرى بل ور بما أيضا فى الكرملين نفسه .

وكان أكثر ماتأثرت به فى وقفتى ببرلين، تلك الفرصة التى سنحت لى لأستعرض حامية برلين فى مطار تمبلهوف . ولقد شاهدت مثل هذا الاستعراض مرة من قبل مع الجنرال إيزنهاور، ورأينا تطور إحدى فرقنا العظيمة التى ولدت فى الجو ثم امتحنتها المعارك وعركت عودها . . والتى تضم ضباطا ورجالا محنكين زودوا بأحدث الأنواع من المعدات الكاملة والذين استطاعوا بكفاءتهم أن يسجلوا لأنفسهم التقدير البالغ دائما وتحت أى ظروف .

وليس فى هذا القول مبالغة ما .. بل إن فيه تحفظا يدل عليه استعراض الأعمال المجيدة التى قامت بها هذه الفرقة الجوية فى معركة بالج فلقد كانت الفرقة الوحيدة فى المعركة ، واستطاعت مع ذلك أن تحتفظ بمركزها فى الدفاع عن بوسطن ضد هجوم عشر فرق ألمانية .

وكان رجال الجنرال كلاى الذين نستعرضهم يبعثون على الفخر لنا نحن الأمريكيين إلا من حيث قوة العدد . فلقد كانوا ظلا ضئيلا للجيش القوى الذى تركته فى أوربا . وقد عنّ لى أن ألقى بنظرة إلى الضباط الروس الواقفين ورائى على منصة الاستعراض، وكأنى أريدهم أن يشهدوا بأنه هنا يقوم أقوى دليل فى العالم على رغبة الأمريكيين فى السلام . . فهنا فى أخطر مكان فى أوربا إن لم يكن فى العالم كله يقوم الدليل الذى لايقبل المغالطة على أن الولايات المتحدة قد سرحت وصفّت فى وقت قياسى أكفأ وأقوى قوات مسلحة تجمعت فى التاريخ . وكان هذا العمل من جانب الولايات المتحدة نتيجة طبعا لحملة « أرجعوا أبناءنا إلى الوطن » التى بدأت قبل انتخابات الكونجرس ووصلت إلى داخل الجيش وخارجه فى إلى درجة من القوة ، لايستطيع معارضتها مسئول فى الحكومة . وكانت النتيجة ، كما ظهر فى مثل هذا الاستعراض ،

اختزالنا لقوات دفاعنا إلى درجة أكبر مما تسمح به الظروف الدولية .

على أنى أحسست ببعض الراحة والأمل فى هذا السرب الجوى الذى تكون من قوتنا الجوية الموزعة على أماكن مختلفة فى ألمانيا . . وتجمع خارج برلين إلى أن جاء دوره فى الاستعراض فمر بقوة لا يزال الانطباع الذى تركته ماثلا . وكانت طائرات B - 17 وهى تطير فى تشكيلة دقيقة قصة بذاتها ولا يسع أى معتد مهما كانت قوته إلا أن يحترمها وهو يرى التخريب الذى أحدثته فى برلين .

وفى الساعات الأولى من يوم ٢٨ مارس ١٩٤٦ غادرنا برلين فى طريقنا إلى موسكو . وكانت طائرتنا قد بلغت حمولتها نهايتها بعد أن انضم إلينا فيها من باريس وفرانكفورت ومن برلين عاصمة ألمانيا السابقة ، بعض رجال سفارتنا فى موسكو الذين كانوا فى غرب أوربا لأعمال مصلحية أو فى أجازات شخصية ، والذين انتهزوا فرصة هذا الطيران المباشر السريع فى عودتهم إلى وظائفهم بموسكو .

واستغرق الطيران من برلين إلى موسكو نحو خمس ساعات ونصف . وذلك لأن الطائرة سلكت أقصر طريق . وقد مررنا فيه على منتصف المسافة بين كونيجزبرج (التى تسمى الآن كالينجراد) العاصمة السابقة لبروسيا الشرقية ولكنها الآن أصبحت جزءا من الاتحاد السوفيتى وبين بحيرات ماسوريان . وكانت تحتنا مساحة شاسعة من الأرض التى دارت عليها المعارك فى أوربا الشرقية فى الماضى القريب والبعيد .

فعليها دارت معركتان حاسمتان من معارك الحرب العظمى الأولى وانتهتا باندحار الروس . وعليها أيضا كسب الروس فى الحرب الأخيرة بعضا من انتصاراتهم العظيمة التى أدت إلى فرار الجيش الألمانى فى غير نظام إلى خلف خط أودر آخر خط دفاعى أمام برلين

وكانت القوات الروسية التي اندحرت فى الحرب العظمى الأولى عبارة عن جيشين بقيادة رنينكاف وسامونوف ، وقد أبيدا عند تانينبرج بعد أن فصلتهما منطقة بحيرات ماسريان التي لايمكن عبورها، ومن ثم لم يستطيعا تبادل العون والامدادات . وكان يربض خلف هذه المنطقة الجيش الثامن الألمانى فأطلقه هندنبرج فأباد الجيش معا .

ولقد أبانت هذه الحملة عن الضعف الذى كان يسود جيوش روسيا طوال القرون الماضية والذى لم تتخلص منه إلا بالنظام البلشفى والرقابة الحديدية . . وكان مرد هذا الضعف هو الحسد والكراهية بين كبار الضباط الروس . وقد عرف هندنبرج هذا جيدا وأقام تقديراته المحكمة على أساسه وأدرك أن سامسونوف ورنينكاف خصمان مريران لبعضهما منذ أمد طويل وذلك نتيجة الخلاف نشب بينهما خلال الحرب الروسية اليابانية ، وأن كلا منهما سيتلكأ كثيرا فى إمداد الآخر عند حدوث هجوم ألمانى عليه . بل كان هندنبرج يعتقد بأن كلا منهما يؤثر أن يرى الآخر منهزما عن أن ينتصر هو ! !

وكانت تقديرات هندنبرج صائبة كلها . وكانت النتيجة اندحارا كاملا للروس . وبعد عبورنا بروسيا الشرقية رأينا تحتنا إقليما خلويا بريا منبسطا انبساط الخريطة . وكان يبدو عليه الافتقار الشديد إلى الطرق ووسائل المواصلات ، ولم نشاهد إلا بضعة مدن وقرى متناثرة فيه . وكان منظرا مؤثرا ، منظر المساحات الخشبية الشاسعة من هذا الاقليم حيث تقوم فيها الغابات الدكناء من شجر الصنوبر وخشب الموسكى وأشجار التبولا .

وكان الجنرال إيزنهاور قد ذكر لى أنه عندما طار عبر هذا الاقليم فى رحلته إلى موسكو مع المارشال زوكوف أشار زوكوف إلى إقفار الاقليم من العمران، وعلل

ذلك بأن الألمان دمروا كل شيء حتى المدن الصغيرة والمنازل الريفية التى كانت تقع على مفترق الطرق .

وأعتقد أن هذا صحيح ، غير أن قلة الطرق المتباعدة عن بعضها وندرة رؤيا سكك حديدية فى الاقليم ، يدل أيضا على قلة السكان والعمران فى الاقليم من قبل الحرب .

وكانت سهول هذا الاقليم هى الطريق التاريخى للجيوش الغازية لا فى القرن العشرين فحسب بل منذ مئات السنين . ففوقها تحركت الجيوش المنغولية فى ثبات نحو الغرب حتى حمل الرسول نبأ موت خان العظيم ، فقفلت الجيوش راجعة إلى عاصمة بلادها لتشترك فى معركة الخلافة . ومنذ القرن الثامن عشر وقفت الجيوش الروسية أربع مرات عند الألب . وأخذت بوتسدام من فردريك ولعبت دورا كبيرا فى الاستيلاء على باريس من نابليون .

وبعد أن طرنا فوق هذه السهول الشاسعة المفتقرة تماما إلى الحواجز الجغرافية الكبيرة ، والمعرضة للغزو من كل اتجاه ، كان من السهل لنا أن ندرك ، على ضوء التاريخ ، لماذا كانت الحكومة الروسية منشغلة البال للغاية بتأمينه ضد الغزو ، ولماذا كانت عاكفة بهمة بالغة على إقامة حزام أمن حول حدودها من دول تصلح لأن تكون حاجزا .

وكان هذا مما يمكن فهمه لو أنه كان حقيقةً الهدف الوحيد للحكومة الروسية . فقد كانت هناك فعلا دلالات مفزعة على أن التوسع الاستعمارى ـ الاتجاه السلافى ، ـ فهكذا عرّفه الكتاب الروسيون المتحمسون ـ قد أخذ حتى فى هذا الوقت يؤكد نفسه من جديد على الرغم من الترديد الكثير لتعاليم لينين فى نبذ أى خطط لغزو

الشعوب الأخرى لأنهم كما قال « نحن الروس لم نستطع أبدا أن نصنع ممن غزوناهم إلا عبيداً للأرض » .

وكانت الأرض تحتنا مغطاة بالثلج وكانت البحيرة لا تزال متجمدة . فكان هذا تأكيدا لما أُخبرت به من قبل عن شتاء روسيا من أن طوله أشق حتى من نفس قسوته .

ولعدة مئات من الأميال ونحن نقترب من موسكو كانت الأرض مسطحة وليس فيها علامات ظاهرة على وجود عمران إلى أن بلغنا قرب حدود العاصمة الروسية .

وكان الوقت حوالى الظهر عند مادارت الطائرة حول مطار موسكو الرئيسى . وكان الجو صافيا ما عدا قليلا من السحاب الواطىء ودفعة ثلج طارئة . وألقينا بنظرة فاحصة على بيتنا الذى سنقطنه قبل أن نهبط إلى الأرض .

وكان أول انطباع لنا عن موسكو أنها مدينة ضخمة منبسطة ذات أبنية واطئة وشوارع واسعة . وكانت تبدو فى المدينة نفسها بعض الأشجار القليلة مع أن ضواحيها مكتظة بالغابات .

وعندما انخفضت الطائرة بنا للنزول إلى الأرض رأينا المطار نفسه يعلوه الجليد . وكان من الصعب تمييز ممر الهبوط المستطيل . كما رأينا فى المطار مجموعة من السيارات وفريقا من الناس المتجمعين هم بالطبع موظفو سفارتنا فى موسكو جاءوا ليرحبوا بمقدمنا .

وعندمادارت الطائرة لتقف ، كان انطباعى الأول نحو زملاء المستقبل الذين كانوا فى استقبالى نوعا من « البهدلة » الفكهة ، إذ كان معظمهم يلبس معاطف من الفرو المخطط والمعثوثة بعض الشىء . وكانت السيدات ملفوفات بالكامل فى معاطفهن

المربوطة عليهن . ومن الصعب أن أقول ماذا كن يشبهن . وكان الرجال يضعون فوق رءوسهم مجموعة غريبة من أغطية الرأس التى كان واضحا أنها قد اختيرت للدفء أكثر منها للمظهر .

وقد تقدم للترحيب الحار بنا مستر جورج كينان مستشار السفارة الأمريكية بموسكو والذى كان يقوم بالأعمال منذ سفر مستر هاريمان ، وكذلك جميع موظفى السفارة الذين سمحت لهم ظروف العمل بتركه واستقبالنا فى المطار .

وقدم رئيس البروتوكول الروسى التحية الرسمية المعتادة باللغة الفرنسية . وقد كان هذا الرئيس رشيقا للغاية فى بدلته الرسمية الرمادية بمعطفها الكبير ذى البزة العسكرية والأكتاف الموشاة نهايتها بالذهب و بقبعته العالية الرمادية المصنوعة من الفرو .

وكذلك حيانا عدد من الديبلوماسيين فى موسكو ، زملاء المستقبل ، الذين جاءوا إلى المطار وعبروا لى عن أمانيهم الطيبة .

وتصافحنا جميعا ثم ركبنا سيارة إلى السفارة التى تقع وسط المدينة . ولن ينسى أحد منا أبدا هذه الجولة الأولى لنا فى شوارع موسكو .

ولاحظت بسهولة أن موسكو تكون فى أسوأ حالاتها فى أوائل الربيع إذ تكون طبقات الجليد والسناج المتتابعة قد أخذت تذوب معا .. فتبدو المدينة كلها داكنة ..

وكان أناس موسكو يبدو عليهم تماما آثار سنوات الحرب الطويلة والتعبئة العسكرية فيها . فكانت أغلبية نسائها ورجالها تلبس المعاطف المحشوة قطنا والشال الذى يغطى الرأس والذى ذكّرنى فى الحال بمنظر الشوارع فى بكين فى الشتاء . ويلبس الرجال والنساء والأطفال حتى الصغار جدا منهم ، الحذاء الروسى الطويل المصنوع

من اللباد . وحقيقة إن هذا الحذاء مدفىء للقدمين فعلا وهو وحده الذى يستطيع الإنسان استعماله خلال شتاء موسكو .

وكان الوقت الذى نعبر الشوارع فيه إلى السفارة هو وقت فسحة الغداء فى المدارس الابتدائية ورياض الأطفال ، فرأينا فى كل شارع تقريبا موكبا من الأقزام الصغار الوقورين المتدثرين بمعاطف محشوة قطنا مثلهم مثل الكبار تماما ، وأغطية للرأس من الفرو أو صوف الغنم المخطط بفتحات للأذن ، وقفازات ثقيلة وأحذية طويلة الرقبة مصنوعة من اللباد . وكانوا يسيرون مثنى مثنى ويدا فى يد .. يسبقهم ويتبعهم المشرفون عليهم .

وكان كثير من مبانى المدينة يبدو فى حالة بالغة من التهدم على الرغم من أنى لم أر مايدل على حدوث ضرب جدى بالقنابل كما حدث فى لندن وبرلين. ويرجع جانب من تلك الحالة إلى أنه حتى وقت قريب كان معظم إنتاج « الطوب الأحمر » فى روسيا من النوع الذى لايقاوم تغيرات الجو . فكانت المبانى أثناء الشتاء تتعرض للشروخ والتقشر وحتى التهدم . ولذلك كان كثير من البيوت يبنى من كتل الخشب .

وكانت المدينة كلها تبدو متعفنة .. وكانت هذه أيضا حال « بيت سبازو » ، بيت المستقبل بالنسبة لى والذى يستحق البكاء والرثاء العميق عند ما نذكر معه الذوق والشياكة فى دور سفاراتنا بلندن وباريس .

وكنا نشعر بالتعب والبرد والجوع بعد هذه الرحلة الطويلة من برلين . فتناولنا الغداء ووزعنا أنفسنا على حجرات النوم فى « بيت سبازو » ، وقضينا البقية من عصر اليوم نحاول الاستقرار المؤقت ونفك بعضا من حاجياتنا .

وفى الصباح التالى ، قمت بأول زيارة لمقر السفارة ، وهو مبنى مكون من سبعة طوابق . وكان يستعمل للسكن من قبل ويطلق عليه الأمريكيون عادة اسم ماخوفايا، مشتقين هذا الاسم من وقوعه فى ماخوفايا يولتزا .. الميدان الكبير الفسيح المزروع شجرا على جوانبه والمجاور لنفس الميدان الأحمر ويقع على الشمال من حائط الكرملين المبنى من « الطوب الأحمر » .

وفى مقر السفارة قابلت الموظفين ثانية . وكانت هذه هى الفرصة الحقيقية الأولى لكى أرى وأتعرف بمن سيشاطروننى العمل والذين كانوا جد متشابهين فى المطار بسبب ملابسهم .

ولم أكن أستطيع ممارسة أعمالى فعلا كسفير فى موسكو إلا بعد تقديم أوراق اعتمادى إلى رئيس الدولة .. الأمر الذى لم يكن ممكنا ترتيبه قبل نحو أسبوع .

وبينما يعتبر معظم العالم المارشال ستالين رئيسا للدولة السوفيتية ، فإن اللقب يحمله قانونيا نيكولا شفرنيك رئيس المجلس السوفيتى الأعلى الذى يعتبر من الوجهة النظرية الهيئة العليا الحاكمة للاتحاد السوفيتى . وطبعا ستالين هو صاحب السلطان الحقيقى ، غير أن لقبه هو رئيس مجلس الوزراء أو بالاصطلاح العرفى رئيس الوزراء .

وفى فترة انتظارى لتقديم أوراق اعتمادى ، قمت بسلسلة من الزيارات غير الرسمية لمولوتوف وزير الخارجية ونوابه الرئيسيين ولزملائى فى السلك الديبلوماسى .

وقد استقبلنى مولوتوف ، بعد يومين من وصولى ، فى مكتبه بدار وزارة الخارجية فله مكتب آخر فى الكرملين . ويسمى أهل موسكو والروسيون وأيضا الأجانب . يسمون وزارة الخارجية « ناركومنديبل » اختصارا لاسمها الروسى الذى ترجمته : قومسيرية الشعب للشئون الخارجية .

وهى مبنية من « الطوب الآحمر » المغبر الداكن وهى تواجه سجن موسكو السياسى المشهور (لبيانكا) على الجانب الآخر من الشارع الذى يفصل بينهما .

ولم يك ثمة حراس خارج الوزارة . ولكنك تواجه بهم توا عندما تدخل من الباب الذى يدور . وبالرغم من أن المبنى من الخارج كان مغطى بسناج أفران موسكو ، فان داخله كان نظيفا للغاية . وأرضياته من الخشب وحوائطه مكسوة بالمشمع الجيد الرقيق الرائع الطلاء .

وعند المصعد قابلتنى فتاة من سكرتارية مولوتوف لتأخذنى إلى جناحه .

وأخذ قبعتى خادم فى زى رسمى كان واضحا أنه جندى سابق، وكان يتميز بوجهه القروى الباسم ومسلكه اللطيف وأدبه المتناهى .

ويتكون جناح الرفيق مولوتوف من حجرة استقبال خارجية وقاعة كبيرة للاجتماعات ومكتب خاص صغير . وأثاثه من طراز قد يرجع إلى منتصف العصر الفيكتورى . وحوائطه مغطى ثلثاها الذى يبدأ من أسفل بخشب قرو مذهب وأرضيته من الخشب الباركيه القوى . وجو الجناح مما يبعث على الهدوء والكفاية والإنتاج المنظم .

وفى اللحظة المحددة لمقابلتنا أُدخلت إلى قاعة الاجتماعات حيث كان فى فى انتظارى مستر مولوتوف ومترجمه مستر بافلوف . وقد علمت فيما بعد أن الرسميين

الروس شديدو الحرص للغاية على الاحتفاظ بدقة مواعيدهم .

وكانت هذه المقابلة الأولى بيننا وما جرى فيها من محادثة من النوع الرسمى القصير المعتاد ولكنه خفيف لطيف باعتباره أول اجتماع بين سفير جديد ووزير خارجية . فسألنى مولوتوف عن رحلتى واستفسر عن عائلتى وأشار إلى خدمتى فى الحرب التى قال إنه عارف بها . وتحدث عن زيارته هو للولايات المتحدة عام ١٩٤٢ ثم عام ١٩٤٥ عند وضع ميثاق الأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو . ثم سألنى عن انطباعى الأول عن موسكو .

وأفصح كلانا عن أمله فى تعاون طيب ومثمر وعن اعتقاده فى الحاجة إلى اتصال أوثق وإلى تفاهم أفضل بين بلدينا .

وعند استعدادى للانصراف أكد لى مستر مولوتوف بأن وزارة الخارجية ستكون فى معاونتى ما استطاعت ووعدنى بأن فى وسعى أن أتصل به فى أى وقت . وكان هذا وعدا احتفظت به بكل دقة ولم ترفض لى « مقابلة فى الحال » كلما طلبتها .

وفى أثناء جلوسى وتحدثى مع مولوتوف لاحظت فيه بنوع خاص عينيه الحادتين وذكاءه . ولم تبد عليه الراحة الكاملة لا فى هذه المقابلة ولا فى المقابلات التى أعقبتها . ووجدت فيما بعد أنه ينقصه شعور المرح والمقدرة على الانفعال السريع والتهكم مما يتميز به فيشنسكى .

وقمت فى الأيام التالية بزيارات مماثلة لنواب وزير الخارجية وهم فيشنسكى وديكانوزوف ولوزوفسكى ومكسيم لتيفنوف . وكان أكثرهم شهرة هو طبعا لتيفنوف الذى عمل وزير الخارجية الاتحاد السوفيتى منذ عام ١٩٢٨ إلى قبيل الاتفاق السوفيتى

النازى الذى عقد عام ١٩٣٩ . وهو رجل بعيد النظر . وقد أثبتت الحوادث المتعاقبة صدق نظره .

وكان فيشنسكى فى هذا الوقت فى نفس شهرة لتيفنوف ثم أصبح طبعا بعد ذلك أكثر منه شهرة فى العالم أجمع .

وتاريخ حياة فيشنسكى متنوع وبارز ممتاز . فقد كان محاميا قديرا ومن عائلة طيبة ، وله نشاط ثورى ملحوظ . . كل هذا رشحه لأن يكون عضوا فى الحزب الروسى الديموقراطى الاشتراكى فى سن مبكرة . وكان قبل ذلك عضوا فى جماعة «منشيفيك»، وهذه الجماعة ، بينما كانت تقبل الآراء الماركسيه إلا أنها كانت ترفض فكرة اغتصاب الأقلية السياسية للسلطة بالعنف والطرق غير القانونية .

وكانت تشترك بدلا من ذلك فى برنامج للنجاح السياسى عن طريق التعليم العام والدعاية ، ولكنه بعد ذلك أيد انتصار حزب « البلشفيك » .

ونال فيشنسكى أول شهرة عامة وكبيرة عندما كان نائبا عاما فى محاكمات التطهير الكبرى فى أعقاب عام ١٩٣٠ حيث كان عَرْضُه للاتهامات نموذجا عاليا للطعن القاسى العنيف . ثم فى قضية بوخارين أحد عمالقة الثورة العسكريين إذ تجلى فيها أبرع ما فى ذهن فيشنسكى السريع تجاه موقف الشهود إذ ظل يرتب ويدبر ويحاور حتى حصل على واحد من تلك « الاعترافات » البارزة التى حيرت العالم فى الخارج وبلبلته .

وللرفيق فيشنسكى حاسة الفكاهة المفحمة ، وعقلية المحامى السريعة . فيه تستلذ المحاورات والمجادلات التى يعمد بعض الأحيان فيها إلى الاغاظة والتهييج . . فقط للمتعة ! !

ولمعرفتى السابقة به ، كانت مقابلتنا أقل رسمية ، وكان حديثنا القصير أكثر سهولة مما كان مع مولوتوف رغم أنه كان فى حدود نفس الخطوط العامة .

ولقد كانت هـذه المقابلة ذات متعة خاصة لى لا بسبب علاقتنا السابقة فى لجنة البحر فحسب ، بل أيضا لأن فيشنسكى كان منوطا به فى وزارة الخارجية الإشراف على قسم الشئون الأمريكية .

وبالنسبة لنائبى وزير الخارجية الآخرين . لوزوفسكى وديكانوزوف ، فانهما لم يبقيا طويلا فى وزارة الخارجية بعد وصولى . ولوزوفسكى رجل قصير يقظ ذكى ذو شعر أشيب ولحية . وكان مشرفا على شئون الشرق الأقصى . وهو مثل لتفينوف يهودى . وبنقله من وزارة الخارجية بعد فترة وجيزة من نقل لتفينوف أبعد آخر موظف يهودى ذى درجة عالية عن الاتصال المباشر بالشئون الخارجية .

وكانت للوزوفسكى سمعة فى السلك الديبلوماسى وخاصة فى السفارة الأمريكية بأنه أصعب رجال وزارة الخارجية فى معالجة المسائل . ولـكنى وجدته خلال تعاوننا القصير لطيفا وأكثر تعاونا فى الواقع من زملائه .

وفى الحقيقة ، كان هو الوحيد فى وزارة الخارجية ، بعد مولوتوف ، الذى يعطينى دائما قرارا سريعا أو إجابة إيجابية خلال مناقشتنا الأولية لأى موضوع .

وكان ديكانوزوف مشرفا على شئون الامبراطورية البريطانية فى وزارة الخارجية ، فلم تـكن لى معه إلا بعض الاتصالات القليلة إلا عند غياب مولوتوف وفيشنسكى حيث قام مرة لمدة قصيرة بأعمال وزير الخارجية . وهو قصير أشقر الشعر شاحب اللون ذو عينين زرقاوين ناصعتين . وشخصيته كانت فى نظرى سلبية نوعا ما .

وحـددت وزارة الخارجية الروسية الساعة الحادية عشرة قبل ظهر اليوم الرابع من أبريل موعدا لتقديم أوراق اعتمادى إلى الرئيس شفرنيك فى مكتبه بالـكرملين. وعلى الرغم من تفاخر الاتحاد السوفيتى بأنه يوصف بـ « دكتاتورية الطبقة العاملة » فإن تقديم أوراق الاعتماد فيه يتم فى طقوس رسمية كتلك التى تقام فى واحـد من أكثر البلاطات الملـكية شدة فى التأنق ! !

وكانت حفـلة تقديم أوراق اعتمادى أول مرة ألبس فيهـا سـترة الصباح والبنطلون المخطط والقبعة الحريرية .

وكان ينتظرنا فى حجرة استقبال الرئيس شفرنيك الوجه المألوف فيشنسكى ومعه عدد من موظفى وزارة الخارجية فى حللهم الرسمية ورئيس البروتوكول مستر مولوتخفو مع مساعديه وترجمانه . فتحادثنا قصيرا ودون رسميات لعدة دقائق دخل بعـدها الرئيس شفرنيك إلى الحجرة .

وبعد أن قُدمت إليه ، ناولته خطاب التصديق الرسمى المعتاد ، وأوراق الاعتماد وهى شبيهة فى كلماتها إلى رئيس أى دولة كما أنها تتبع صيغة دبلوماسية قديمة : ثم أخذت أقرأ :

هارى . س . ترومان

رئيس الولايات المتحدة الأمريـكية

إلى صاحب السعادة

رئيس المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

صديقى العظيم الفاضل :

لقد اخـترت والتر بيدل سميث المواطن الأمريكى الممتاز ليقيم بجوار حكومة

سعادتكم بصفة سفير فوق العادة ومطلق التفويض من قبل الولايات المتحدة الأمريكية. وهو كامل الاحاطة بالمصالح المتبادلة للبلدين وبالرغبة المخلصة من هذه الحكومة لتنمية الصداقة التى قامت طويلا جدا بينهما إلى أكمل درجاتها . وما أعرفه من صفاته العالية ومقدرته يجعلنى كامل الثقة فى أنه سيسعى دائما للتقدم بمصالح ورفاهية الحكومتين مما يجعله مقبولا عند سعادتكم .

ولذا فانى أرجو سعادتكم فى أن توافقوا على استقباله ، وفى أن تعتمدوا كل ماسيقوله باسم الولايات المتحدة والتأكيدات التى زودته بها ليحمل إليكم أطيب تمنيات هذه الحكومة لرفاهية اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

وليحفظ الله سعادتكم برعايته الحكيمة .

صديقك المخلص

واشنطن فى ٢٢ مارس ١٩٤٦ هارى . س . ترومان

وبعد قبول هذا قمت بتقديم موظفى السفارة . وبعد ذلك دخل الرئيس شفرنيك وأنا ـ حسب التقاليد ـ إلى مكتب خاص مجاور حيث تحدثنا نحو خمس عشر دقيقة . وكان شفرنيك يشبه فى مظهره إلى حد كبير رجل أعمال أمريكى رغما من أن طريقه إلى النجاح كان عن طريق زعامة اتحاد التجارة السوفيتى وطبعا السياسة الحزبية . وهوذو طول أقل قليلا من المتوسط . وكمعظم الرسميين السوفييت ذو وزن زائد قليلا . وشعره وشار به أسودان وذو بشرة صافية حمراء وعينين دقيقتين مشرقتين يتميز بهما كثيرون جدا من الروسيين .

وكانت ملاحظاته التى بدأ بها الحديث لطيفة وودية . فاستفسر عن صحة الرئيس ترومان وتمنى لى أطيب التمنيات لنجاح بعثتى وردد موافقته الرئيس ترومان

بالنسبة للحاجة إلى زيادة علاقات الصداقة بين بلدينا .

وأشار الرئيس شفرنيك بعد ذلك ، وقد يكون ذلك بسبب حياتى العسكرية ـ إلى مقال رآه أخيرا منقولا عن صحيفة أمريكية تعالج مشاكل الولايات المتحدة بخصوص إعادة تأهيل المحار بين المسرحين . وقال إنه من بعض الوجوه معنى بمشكلة مماثلة فى روسيا . ثم سأل عدة أسئلة عن مشروع محار بينا المسرحين وأبدى اهتماما أيضا ببرنامجنا لتعليم المحار بين وسأل عما إذا كان قد حقق نجاحا .

ورغب فى أن يعرف ماذا كانت تجربتنا بالنسبة للموقف الفكرى للمحار بين العائدين إلى الحياة المدنية .

وأشار شفرنيك إلى أن جنود الاتحاد السوفيتى كانوا يحجمون إثر عودتهم مباشرة عن الاذعان ثانية إلى نظام المزارع والمصانع ، وأن معظم المحار بين رغبوا فى إطالة فترة الراحة والحرية النسبية التى منحوها بعد الحرب .

وقد أجبت على أسئلته فى كثير من التفصيل الذى سمح به الوقت والذوق السليم .

وعدنا ـ الرئيس شفرنيك وأنا ـ بعد ذلك إلى حجرة الاجتماع الخارجية حيث اصطففنا جميعا لأخذ صور صحفية لنا . وقد كنت أظن نتيجة لتجاربى فى أمريكا والخارج أن المصورين الصحفيين الذين يعطون الأوامر غالبا لرئيس الولايات المتحدة والذين يصدرون طلباتهم فى غير اكتراث ، هم هم فى كل أنحاء العالم .. إلا أننى وجدت مصورى الكرملين متحفظين لدرجة كبيرة ولايطلبون شيئا على الاطلاق . وكانوا يبدون متهيبين من جو الكرملين . وأخذوا فقط الحد الأدنى من اللقطات بدون أن يطلبوا المطلب الحتمى فى كل مكان .. « فقط واحدة أخرى !! » .. وبدون أن

يطلبوا إعادة تنظيم الواقفين .

و إلى هنا انتهى حفل تقديم أوراق الاعتماد واستقلت المجموعة الأمريكية سياراتها إلى «سيازو» حيث وزعت الشيرى (نوع من الخمر الأسبانية) احتفالا بقبول أوراق اعتمادى .

ولكنى لم أستطع أن أبقى مع المجموعة إلالدقائق قليلة . إذ كان علىّ أن أدخل إلى حجرتى مع مستر كنان وواحد أو اثنين من كبار موظفى السفارة لأراجع تعليماتى وأستعد لأول اجتماع مع المارشال ستالين الذى حددت له الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم .

obeikandl.com

الفصل الثالث

ستالين

كان الروس ، قبل عدة أسابيع من مقابلتى لستالين ، قد قصروا فى تنفيذ التزاماتهم وتعهدهم بأن يسحبوا جنودهم من إيران . وكانت هذه الجارة قد قدمت شكواها إلى مجلس الأمن . وكان مصير جنود الأمم المتحدة يبدو معلقا فى الميزان بسبب هذا الموضوع . وكان جروميكو مندوب الاتحاد السوفيتى قد ألقى خطابا غاضبا فى المجلس عندما أصرت دول العالم الأخرى تتزعمها الولايات المتحدة ووزير خارجيتها بيرنز على مناقشة المجلس للمسألة الايرانية دون إبطاء . ولم تكترث الحكومة السوفيتية بقرارات الأمم المتحدة ، ولكنها تحت ضغط الرأى العام الدولى حددت تاريخا هو الخامس من مايو لسحب قواتها من إيران . وتساءل العالم عما إذا كان الروس سيحترمون كلامهم هذه المرة ؟ .

وكان ثمة توتر وصعوبات تحدق بالروس فى الصين وكوريا وفى مسألة إعادة أسرى الحرب اليابانيين ، وفى أوربا. فقد ضم الاتحاد السوفيتى إليه منذ بدء الحرب فى عام ١٩٣٩ ، كلامن لاتفيا ولتوانيا واستونيا وأجزاء من بولنده ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وفنلندا . وكانت فى بعض الدول الأوربية حكومات مستجيبة للكرملين ولها سيطرتها الكاملة الثابتة على شعوبها مثل حكومات بولندا و بلغاريا ويوجوسلافيا ورومانيا . كما كان الأعضاء الشيوعيون فى الحكومات الائتلافية

فى تشيكوسلوفاكيا والمجر يزداد عدوانهم يوما بعد يوم ، وكان واضحا أن ثمة أزمات سياسية جديدة متوقعة فى كل من البلدين .

وفى فرنسا و إيطاليا كانت للأحزاب الشيوعية أقلية تمثلها فى البرلمان ولكنها أقلية مهمة وجوهرية ، كما كان لهذه الأحزاب الإشراف على الحركات العمالية فى البلدين ، وكانت تنتظر فرصتها لتنفذ عزمها على السيطرة على الحكومة كلها . وكانت فى فنلندا والسويد و إلى حد ما فى النرويج هجمات متكررة تنذر بوقوع شر فيها .

وكان الاتحاد السوفييتى قد خرق اتفاقا بعد آخر فى التوسع السياسى الذى كان يمد فى تأثير الكرملين عبر مساحات كبيرة فى أوربا وآسيا .

وفى ظل هذه الحالة جميعها . . تم اجتماعى مع ستالين . ولذا فقد تمت دراسة هذا الاجتماع بعناية بالغة فى مشاوراتى مع الرئيس ترومان ووزير الخارجية بيرنز ومع أقدر المختصين فى وزارة الخارجية بشئون الاتحاد السوفيتى . وزيادة على ذلك كتب الرئيس خطابا شخصيا وديا إلى ستالين حملته إليه ، وفيه يدعوه لزيارة الولايات المتحدة ضيفا على الشعب الأمريكى . وكذلك طلب منى أن أسأل الزعيم السوفيتى بعض الأسئلة الصريحة المباشرة . وقد أخبرت الرفيق مولوتوف بتعليمات الرئيس هذه .

وكنت أعتقد فى نفسى أنى محصن تقريبا ضد أى شىء قد يثار فى هذا الاجتماع . ولكن لامناص من أن أعترف بأنى عانيت إحساسا متزايدا بالتوتر كلما اقتربت ساعة مقابلتى لستالين .

وقدرت أن المقابلة قد تكون عاصفة ، ولهذا السبب رأيت أن أذهب وحيدا دون أن آخذ معى أحدا من كبار موظفى السفارة أو حتى مترجما . وتناول العشاء معى فى دار السفارة هذه الليلة مستر جورج كنان مستشار السفارة وقتئذ والذى امتدت إقامته

فى الاتحاد السوفيتى منذ إنشاء أول بعثة ديبلوماسية لنا هناك فى عام ١٩٣٣ ، وموظفون آخرون من السفارة . ولكنا كنا نتحدث أكثر مما نتناول الطعام، حيث كنا نحاول أن نرسم الأسلوب الذى نتوقع أن تجرى عليه المحادثة بينى و بين ستالين، والتى كنا نحس أهميتها القصوى . وأخذت أقرأ ثم أقرأ صفحة ونصفا من الملاحظات المكتوبة تحت عنوان « النقط المحتملة للضغط عليها فى المحادثة مع ستالين » والتى أُعدت فى وزارة الخارجية قبل مغادرتى واشنطن .

وكان الليل صافيا و باردا . وكانت السماء مليئة بالنجوم عندما غادرت دار السفارة إثر الساعة الثامنة والنصف مساء وانطلقت سيارة السفارة تحمل العلم الأمريكى ، مسرعة فوق الجليد المغطى بالسناج والطين إلى « الأربات » الذى يمكننى أن أقول إنه أكثر شوارع العالم اكتظاظا برجال البوليس، وذلك لأنه الطريق الذى يسلكه ستالين وأعضاء المكتب السياسى من مكاتبهم فى الكرملين إلى منازلهم فى الريف . ويقال إن المحلات التجارية والمنازل التى تقوم على جانبى هذا الشارع يفتشها البوليس السرى بمنتهى العناية والتدقيق وغالبا ما يعيد تفتيشها . وكل ضيف أو زائر لابد من التأكد من شخصيته ووضعه تحت المراقبة الدائمة . ويوجد رجل بوليس على الأقل عند كل مائة ياردة ، واثنان إلى أربعة عند كل تقاطع .

وإذا ما أقتربت سيارة رسمية لها ما يسمونه « امتيازات الكرملين » فان جميع أضواء المرور تنقلب خضراء وتُعطى السيارة حق السير فى الطريق الذى تريد . وعندما وصلنا إلى بوابة الدخول عند الحائط الغربى للكرملين ، أوقف السيارة ضباط البوليس السرى الذين عليهم أن يتأكدوا من شخصية المارين وأن يلقوا نظرة سريعة داخل السيارة .

وقادت سيارةَ السفارة ، سيارةُ إرشاد كانت واقفة خارج البوابة فى انتظارنا .. قادتها خلال البوابة الرئيسية بينما انطلق ناقوس تنبيه ـ بتأثير عين كهربائية ـ يدق باستمرار حتى عبرنا إلى داخل فناء الكرملين. وعند البوابة نفسها لم نوقف للتأكد منا ثانية بل مررنا وسط تحية الحراس وضباط البوليس السرى الذين كانوا فى النوبتجية .

ومرت السيارة بنا وهى تنطلق من البوابة عبر الشارع الداخلى الواسع ذى الأشجار على جانبيه إلى المبنى الذى يضم مكاتب المارشال ستالين وأعضاء المكتب السياسى المهيمن .. مرت بنا بمتحف الكرملين وصالة المجد السوفيتى الأعلى التى حولت قاعات الرقص السابقة فيها إلى حجرات لاجتماع الهيئة التشريعية للاتحاد السوفيتى، وبكنائس الاغريق الارثوذكس القديمة البديعة وببرج الجرس الذى يوجد فى أسفله الجرس الكبير المكسور المعروف فى المصورات الجغرافية لمدارس الأطفال .

ولما اقتربنا من مدخل الكرملين المضىء .. شاهدت حاجبا فى الزى الرسمى للكرملين ذى اللون الرمادى الداكن وأشرطة الزركشة الحمراء على الياقة والأكمام . وكان واقفا معه ضابط طويل يحمل فوق أكتافه العلامات الذهبية لكولونيل . وكانت تبدو عليه الجندية الكاملة بمعطفه ذى اللون الزيتونى الداكن وأشرطة الزركشة الحمراء وبينطلونه القصير الأزرق القاتم ذى الخطوط الحمراء وبحذائه الجلدى الطويل الأسود الأملس . وكجميع العسكريين فى نوبتجيتهم فى الكرملين وضع طبنجته فى جرابها بحزامه .

وعندما فتح الحاجب باب السيارة حيانى هذا الكولونيل بابتسامة ودية وذكر بعض كلمات بالروسية وأشار إلىّ بأن أتبعه .

وحملنا مصعد إلى الدور الثالث . وسرنا فى ردهة طويلة ضيقة ذات سقف عال .

وكان يقف حارس مسلح من البوليس السرى فى زيه الرسمى عند كل منعطف فيها . ويقتضى الدخول إلى جناح المارشال ستالين المرور من باب مزدوج عال مغطى ومبطن بجلد أخضر قاتم، ويفتح على حجرات استقبال متتالية . وفى الثانية منها كان يقف عدة ضباط من البوليس السرى قريبا من مكتب كان يجلس عليه رجل قصير كامل الصلع فى زيه الرسمى الذى كانت تحمل أكتافه شارة الجنرال . وعرفت فيما بعد أنه سكرتير ستالين فى مجلس الوزراء .

وتوقفنا فى هذه الحجرة حتى أُبلغ نبأ وصولنا . ثم أدخل بى إلى حجرة اجتماع كان يقف فى طرفها الآخر ستالين ومعه مولوتوف وبافلوف الموظف الشاب المحبوب بوزارة الخارجية والذى عمل مترجما للثلاثة الكبار فى طهران ويالتا وبوتسدام .

وحيانى ستالين رسميا وصافحت مولوتوف وبافلوف ثم أشار لنا ستالين إلى المائدة لنجلس عليها . وجلس عليها مواجها لى وظهره إلى الحائط المعلق عليها صور مارشالى روسيا العظيمين سفروف وكتزوف . وجلس مولوتوف إلى يمين ستالين . ولكنه لم يشترك فى المحادثة إلا فى مناسبة أو اثنتين عندما أسر إلى المارشال بذكره ببعض النقاط . وجلس بافلوف بين ستالين وبينى وقام بالترجمة لكلينا بأن كان يدون فى اختزال عبارات كل متحدث ثم يقوم بترجمة مادون بعد انتهاء كل متحدث. وانجليزيته طبعا ممتازة .

وبدأ ستالين المحادثة بالتحية شبه الرسمية المعتادة وبالاستفسار عن رحلتى من الولايات المتحدة والسؤال عن صحة الرئيس ترومان معبرا عن أمله فى أن يكون فى صحة جيدة . ثم أشار إلى اتحادنا فى الحرب وذكر أنى معروف جيدا للجيش والشعب الروسيين وأنهما كانا يأملان فى أن يحيانى قبل ذلك عند زيارة الجنرال إيزنهاور لموسكو .

فناولته بعد ذلك على الفور رسالة الرئيس ترومان إلى بافلوف الذى قرأها بالروسية . فأنصت إليها ستالين دون أن يظهر ما أفهم منه شعوره و إحساسه إزاءها . ولما انتهى بافلوف من قراءتها أومأ ستالين بهز رأسه ثم كان عجبى أنه لم يعلق عليها بشىء ما . و بعد نحو ساعتين عندما انتهت محادثتنا ، فقط أشار إلى دعوة الرئيس ترومان إياه قائلا :

« كنت أود جدا أن أزور الولايات المتحدة ، ولكن السن قد اقتضى ضريبته . فأطبائى يقولون لى بأنه يجب ألا أسافر لمسافات طويلة ، و إنى ألتزم نظاما دقيقا فى الطعام . سأكتب إلى الرئيس وأخبره لماذا لاأستطيع تلبية دعوته . يجب على المرء منا أن يحافظ على صحته . لقد كان الرئيس روزفلت ذا تقدير عظيم لواجباته و إحساس عظيم بمسئولياته ولكنه لم يصن صحته .ولو كان فعل ذلك لكان من المحتمل أن يكون حيا اليوم » .

وكان السؤال الأول الذى وجهته إلى الزعيم السوفيتى هو :

« ماذا يريد الاتحاد السوفيتى و إلى أى مدى ستذهب روسيا فيما هى ذاهبة إليه ؟ »

وأوضحت أن هذا هو أهم سؤال كان يدور فى رءوس الشعب الأمريكى عند مغادرتى الولايات المتحدة، ثم قلت إن الولايات المتحدة تستطيع أن تقدّر وأن تدرك رغبة الاتحاد السوفيتى فى السلام . ونحن فى الولايات المتحدة عرفنا جيدا وعطفنا من أعماق قلوبنا على ما عاناه الشعب الروسى وكابده على أيدى الألمان المعتدين ، وكذلك قدّرنا كل التقدير المجهود الرائع الذى قام به الجيش الأحمر فى هزيمة ألمانيا . فنحن ندرك رغبة الاتحاد السوفيتى فى السلام وفى أن يكون له نصيبه من المواد الخام

فى العالم ، ولذا لم ينتقد شعبنا بشدة ما كان يبدو بعضا من أهداف السوفييت .

واستطردت أقول إن الوسائل التى استعملها الاتحاد السوفيتى للوصول إلى هذه الأهداف هى التى سببت الخوف البالغ فى الولايات المتحدة .

فهذه الوسائل ـ لكى أكون أمينا ـ أعطت انطباعا فى أمريكا بأن الحكومة السوفييتية لم تكن تعنى ما كانت تقوله فى تصريحاتها منذ انتهاء الحرب عن نواياها السلمية غير العدوانية ورغبتها فى عدم التدخل بأية وسيلة فى حقوق الدول المجاورة وحرياتها العامة والسياسية . والشعب الأمريكى راغب ومتشوق إلى مقابلة الاتحاد السوفيتى فى منتصف الطريق لأنه مقتنع بأنه إذا ماتفاهم شعبانا وتعاونا معا تأكد سلام العالم . وقطعا نحن نعتقد أننا قد ذهبنا فعلا إلى أكثر من منتصف الطريق .

وكنت أتوقف كثيرا حتى يستطيع بافلوف ترجمة ملاحظاتى وحتى يستطيع ستالين أن يجيب عليها لو أراد ، ولكنه رغب فى أن أكمل كلامى . ولم يكن وجهه يعبر عن شىء وأنا أتحدث إليه . ولم يكن ينظر إلىّ بل بقى مديرا رأسه إلى أحد الجوانب ، وكان يأخذ بين الحين والحين نفسا من سيجارة روسية طويلة .

وأخذت أشير إلى عدد من الحالات إلى أن وصلت إلى تلك الحالات ذات الأهمية السياسية والتى تشمل إيران وتركيا ثم الولايات المتحدة . وقلت إننا لم نستطع أن نأخذ مأخذ الجد احتمال قيام حدث عدائى ضد روسيا اليوم من أمة أو مجموعة أمم. ولقد بدأنا عملية تسريح قواتنا المسلحة وأخذنا نسير فيها بسرعة عظيمة.. الأمر الذى يحمل البرهان الكافى على نوايانا غير العدائية . ونريد فى الواقع أن ننزع السلاح على مدى أكبر لو أمكن القضاء على الجو القائم المشحون بالشك وتوقع الشر .

وإلى هنا . . كان ستالين لا يزال مديرا رأسه قليلا . ولكنه عند هذه النقطة بدأ ينظر إلىّ بين الحين والحين ويشخبط بقلم أحمر كما يفعل غالبا عندما يكون مهتما بما يسمع . وكانت رسوماته المكررة كثيرا ، تبدو كقلوب غير متوازنة الجنبين وفى وسطها علامة استفهام .

ثم قلت إننا نريد دليلا أكبر على تعاون الاتحاد السوفيتى فى تأييد مبادىء ميثاق الأمم المتحدة . ولقد طلب منى الرئيس ترومان أن أقول إنه ووزير الخارجية بيرنز اعتقدا دائما بأنه عندما يعقد ستالين التزاما فانه يعنى أن يلتزم به . والشعب الأمريكى يرجو أن تؤيد الحوادث هذا الاعتقاد . ولكن لسوف يُساء تأويل مسلك الولايات المتحدة إن هى من أجل اتجاهاتها الأساسية نحو السلام واهتمامها العميق بالأمن الدولى عرّضت نفسها للانقسام أو الضعف أو التقاعس عن مواجهة مسئولياتها . فاذا ما حدث أن اقتنع الشعب الأمريكى بأننا مواجهون بموجة من الاعتداء المتجدد من جانب أية دولة قوية أو مجموعة دول ، فاننا سنقاوم تماما كما فعلنا دائما فى الماضى .

وعندما انتهيت من حديثى . . مرت فترة صمت قصيره سألنى ستالين بعدها : « هل انتهيت ؟ » فقلت نعم . فبدأ هو يجيب فى هدوء وبلطف واسهاب . وجعلنى تسلسل ملاحظاته واسهابه فيها ، أعتقد إما أنه ذو ذاكرة قوية وقدرة عظيمة على التركيز وإما أنه قد توقع إثارتى لهذه المسائل فاستعد لها .

وقد تضمن بيانه الذى أجاب به ، عددا من التهم المضادة منها الزعم بأن الولايات المتحدة قد ربطت نفسها نهائيا مع انجلترا ضد اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

وناقش فى إسهاب موضوع الزيت الايرانى ساردا تاريخ العلاقات الروسية

الايرانية من وقت معاهدة فرساى . وعلق بشىء من المرارة على ضغط الولايات المتحدة لمناقشة شكوى إيران فى الأمم المتحدة ومعارضتها طلب جروميكو تأجيل هذه المناقشة . ثم ضغط على احتياج الاتحاد السوفيتى إلى نصيب أكبر فى استغلال موارد العالم من زيت البترول ، وقال إن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة أخيرا أقامتا العوائق فى طريق روسيا كلما سعت إلى الحصول على امتيازات بترولية .

ثم قال « إنكم لا تقدرون مركزنا بالنسبة للبترول وإيران . إن حقول باكو أعظم منابع البترول عندنا . وهى ملاصقة لحدود إيران ومعرضة جدا للهجوم . ويقول لى بيريا ـ رئيس البوليس السرى السابق الذى اعدم أخيرا ـ وآخرون بأن المخربين ـ حتى ولو كان شخصا واحدا بصندوق ثقاب ـ يمكن أن يسببوا لنا إتلافا خطيرا . ولسنا مستعدين للمخاطرة بتموينا البترولى » .

وأكد ثانية تأييد روسيا لميثاق الأمم المتحدة متهما الصحافة والسياسيين الأمريكيين بأنهما قد أعطيا فكرة غير صحيحة بالمرة عن تصرفات روسيا فى الأمم المتحدة .

ثم عاد إلى تهمة السيطرة الروسية على الحكومات المجاورة وقال إن اتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية ليست له أية نية فى ضم الأمم البلقانية . وأضاف أنه حتى لو كانت لديه نية فلن يكون الأمر سهلا ، لأن الشعوب البلقانية مصممة على الاحتفاظ بكيانها القومى .

وعبر عن استيائه الشديد من خطاب « الستار الحديدى » الذى ألقاه ونستون تشرشل فى «فالتون» بولاية ميسورى . وقال ستالين : لقد كان هذا الخطاب عملا غير ودى ، وكان هجوما غير مستساغ على اتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية .

وأن مثل هذا الخطاب لو كان موجها ضد الولايات المتحدة ما كان يمكن إطلاقا أن يسمح به فى روسيا .

وسألته لماذا يعتقد أن كل دولة أو مجموعة دول تبدو فى نظره مهددة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

فأجاب « تشرشل . . إنه حاول أن يحرض على الحرب ضد روسيا . وكان يقنع الولايات المتحدة بأن تشترك معه فى احتلال مسلح لجزء من بلادنا عام ١٩١٩ . ولقد عاد إلى هذه الأفكار أخيرا . ولكن روسيا ، كما أثبتت الحوادث فى السنوات القليلة الماضية ، ليست غبية . ونحن نعرف أصدقاءنا من هؤلاء المحتمل أن يكونوا أعداء لنا » .

فسألته « هل يصل بك الاعتقاد حقيقة إلى أن الولايات المتحدة وانجلترا متحدتان فى تحالف لمناوأة روسيا ؟ » .

فأجاب ستالين على الفور بالروسية « دا » أى « نعم » فقلت « إننى لأؤكد بأقوى العبارات الممكنة . . أن هذا ليس الواقع . فأولا أنا أعرف مستر تشرشل جيدا إذ عملت تحت ما يمكن اعتباره رئاسة وذلك كأركان حرب الحلفاء . وهو رجل بعيد النظر فى الشئون الدولية ، ولا يمكننى أن أتصوره أبدا كمحرض على الحرب . لست أدافع عن خطابه فى فالتون ولكن يجب أن أقول إنه يعكس الخوف وتوقع الشر اللذين يبدوان شائعين فى الولايات المتحدة وانجلترا معا .

واستطردت « وثانيا . . سوف تدرك الحكومة السوفيتية أنه بينما تربطنا مع انجلترا روابط كثيرة منها اللغة المشتركة وكثير من المصالح المشتركة إلا أن اهتمامنا الأول هو بالسلام والعدل الدوليين .

وهذا الاهتمام وتلك المسئولية تمتدان إلى الأمم الصغيرة كما تمتدان إلى الكبيرة . وأنه إذا كانت الحوادث الأخيرة قد اقتضت الولايات المتحدة أن تصوت مع بريطانيا فى الجمعية العامة للأمم المتحدة وفى مجلس الأمن فذلك لأننا اعتقدنا بأن العدل يقتضينا ذلك » .

وانتهيت إلى قولى : « كل ما قلته إلى الآن مفيد ومشجع .. ولكنه ليس جوابا على السؤال الذى وجهته فى بدء المحادثة والذى قلت إنه أهم سؤال يدور فى عقول الأمريكيين . . « إلى أى مدى ستذهب روسيا فيما هى ذاهبة إليه ؟ » .

وصوب ستالين نظره إلىّ وأجاب « لسنا ذاهبين كثيرا إلى أبعد » فقلت « ليس كثيرا إلى أبعد . . فهل هذا الـ (كثيرا) له أى صلة بتركيا ؟ » .

فأجاب ستالين « لقد أكدت للرئيس ترومان وأذعت على الملأ بأنه ليس لدى الاتحاد السوفيتى نية فى مهاجمة تركيا وليس لهذه النية وجود . ولكن تركيا ضعيفة والاتحاد السوفيتى حساس جدا بالنسبة لخطر السيطرة الأجنبية على البواغيز التى ليس لتركيا من القوة ما يكفى لحمايتها . والحكومة التركية غير صديقة بالنسبة لنا . وهذا هو السبب فى أن الاتحاد السوفيتى طالب بقاعدة فى الدردنيل . فانه أمر أمننا نحن » .

قلت « إنه يبدو لحكومتى أن هذا هو تماما نوع المشاكل الذى يجب أن تعالجه الأمم المتحدة . فلقد أقمناها بالضبط لتمدنا بهذا الأمن . فلو كان الاتحاد السوفيتى مخلصا فى تأكيده تأييد الأمم المتحدة ، فإن هذه الهيئة تستطيع مده بمثل هذا الأمن . والأمن السوفيتى يمكن ضمانه بغير عدوان على تركيا » .

فأجاب ستالين « من الممكن أن يوافق الاتحاد السوفيتى على أن مجلس الأمن هو الذى يستطيع الاضطلاع بهذه المسئولية » .

وإلى هنا كان الاجتماع قد استغرق أكثر من ساعتين . واعتقدت بأنى قد أوضحت موقف حكومتى . وأشرت إلى أنى قلت كل ما كنت أرغب فى قوله. ولخصت النقط الرئيسية التى أثرتها وكررت رغبتنا فى قيام علاقات أوثق وتفاهم متبادل ، الأمر الذى نعده أساسيا بالنسبة للسلام فى العالم والذى زودنى الرئيس بتوجيهاته للعمل من أجله .

فقال ستالين « أرجو لمجهوداتك التوفيق والنجاح ،وسأساعدك ، وأنا تحت أمرك فى كل وقت »

ثم أكد ثانية رغبته فى السلام والتمسك بالأمم المتحدة ، واعتقاده بأنه رغم الفوارق فى مذهبينا السياسيين فالموقف بين دولتينا ليس مما لا يمكن التوفيق فيه »

وعندما انتهت المحادثة قال ستالين « ينبغى ألا نفزع أو نخاف بسبب الخلاف فى الرأى وفى المناقشات . . الأمر الذى يحدث بين العائلات بل بين الاخوة . فبالصبر وبالارادة الطيبة يمكن التوفيق بين هذه الخلافات »

هل من الممكن الوصول إلى تفاهم مع ستالين ؟

هل هو ديكتاتور مطلق فى مثل سوء هتلر وموسولينى أو أسوأ منهما ، منطو بينه و بين نفسه على نية غزو العالم ، ومسئول عن سياسة الاتحاد السوفيتى العدائية ضد أمريكا والتى كلفتنا كثيرا من الوقت والجهد والمال وأنزلت بعالم بعد الحرب الخوف المفزع المثبط من قيام حرب أخرى ؟ أم هو على العكس زعيم أقلية داخل المكتب السياسى السوفيتى تميل إلى الغرب وتود الوصول إلى ترتيب معقول معه ينفذ باخلاص

كامل لضمان سلام العالم ، إلا أنه غير مستطيع ذلك لأن أغلبية الأصوات تجىء فى جانب الزملاء الآخرين فى الهيئة الخاصة الحاكمة داخل الكرملين ؟

هذه الأسئلة التى سئلتها مئات المرات منذ عدت إلى الولايات المتحدة تعكس التيارات المتضاربة فى الرأى العام الأمريكى . . وحتى الآونة الأخيرة كان هذا الرأى العام متأرجحا بين طرفى التفاؤل والتشاؤم تحت تأثير التقارير التى تصل عن شىء قاله أو فعله ستالين .

وتدرج هذا الرأى العام من نظرة يائسة لبضعة متطرفين ينظرون إلى ستالين على أنه دكتاتور مطلق معاد ، ويعتقدون أن حربا رادعة هى الحل الوحيد . . إلى « تمنيات » عند آخرين يصورونه كزعيم يعمل لصالح الغير فاذا ما أعطى بعضا من التشجيع فانه يستطيع إقناع زملائه ليتخلوا عن استراتيجيتهم الفكرية الأساسية لسيادة الشيوعية فى العالم ، ويجعل من الممكن قيام سلام ممكن ودائم على أساس من التعاون الدولى ، وبين الباقين فى الشعب الأمريكى ممن يهمهم فقط مسألة ما إذا كنا نستطيع الحصول على مصالح من ستالين فى المستقبل القريب . .

ومن هؤلاء انعكست نظرية منتصف الطريق التى تقول « دعونا نستمر فيما نحن فيه الآن وليتدبر المستقبل أمر نفسه »

وإنى أشارك بالكامل بول ونترثون المراسل السابق الممتاز للندن نيوز كرونكل بموسكو فى رأيه الذى يقول فيه « لا يوجد خبراء فى الاتحاد السوفيتى وتوجد فقط درجات متنوعة من الجهالة » .

ولمدة ثلاث سنوات ومكتبى فى السفارة الأمريكية يطل على موخافا بلتزا المجاور لحوائط الكرملين مقر السلطة السوفيتية . . ومع ذلك فلم أدخل إلى داخل

هذه الحوائط لعمل رسمى إلا أقل من عشرين مرة ، ولا تحدث مع ستالين حديثا طويلا أربع مرات . ومع ذلك فأربعة أحاديث طويلة مع ستالين واجتماع أو اثنان قصيران معه . . كانت أكثر مما حصل عليه أى ديبلوماسى غربى آخر فى الفترة التى قضيتها فى روسيا . وهذه الفرص التى أتيحت لى لمقابلة زعيم الشعوب السوفيتية وجها لوجه مع دراسة دقيقة لما قاله وفعله خلال السنوات الماضية . . تجعل من الممكن التفريق بين ستالين « الحقيقة » وستالين « الاسطورة » .

ولقد كونت عدة أحكام عن ستالين فى عامه التاسع والستين من حياته والخامس والعشرين من حكمه .

فهو مثلا ليس دكتاتورا مطلقا ولا أسير المكتب السياسى . ويمكننى أن أقول إن مركزه أكثر من مجرد مركز رئيس للوزارة وأن رأيه هو القاطع . وتوجد بلا شك انقسامات فى السياسة وأحزاب فى المكتب السياسى ولكن ليس بين الأعضاء واحد ضد ستالين فكل خصومه قد صفى حسابهم ونفوا أو أعيد تعليمهم .

والسياسة الخارجية العدوانية والتوسعية للاتحاد السوفيتى فى « فترة مابعد الحرب » هى سياسة ستالين . ولم يكن ممكنا ـ فى النظام السوفيتى الحاضر ـ أن توضع موضع التنفيذ وتستمر بدون تصديق ستالين وموافقته . فيجب أن ينظر إليه على أنه بطلها لا على أنه مؤيد متثاقل لها .

وعندما يقول ستالين للسياسيين الأجانب أو الصحافة الأجنبية بأن الرأسمالية والشيوعية يمكن أن يعيشا جنبا إلى جنب فى سلام ، فانه يناقض نفس كلماته أو يتكلم بمعنى معين ، ففى كتاباته وخطبه إلى زعماء الحزب الشيوعى يكرر تأكيد نظرية لينين الأساسية من أنه لا مناص من أن تقوم فى المستقبل معركة بين الاتحاد السوفيتى والرأسمالية التى تحاصره .

و بالنسبة لصحة ستالين .. تبدو عليه علامات سنه المتقدمة .. الأمر الذى يجب توقعه إذا أدخلنا فى الاعتبار الحمل الضخم من العمل والمسئولية الذى حمله لسنوات عديدة أكثر من أى زعيم وطنى آخر على قيد الحياة . وكانت ثمة إشاعات عن نوبات القلب عنده . وقد قال لى ولأجانب آخرين بأن النظام الذى فرضه أطباؤه عليه يقتضى نظاما غذائيا خاصا و يمنعه من السفر الطويل بالبحر أو الجو . إلا أنه من إقليم جورجيا الذى ليس بلوغ المائة فى أهله أمرا غير شائع . وقد بدأ فعلا يحافظ على صحته وعافيته ، لذلك لا أرى سببا يحول دون احتمال استطاعة استبقاء سلطة الحكم فى يديه لعدد آخر من السنين .

أى نمط من الرجال « ستالين » هذا الذى يحكم ٢٠٠ مليون نسمة فى الاتحاد السوفيتى و يشرف على أقدار ١٠ ملايين آخرين أو أكثر فى الدول المجاورة التى فيها شيوعية روسيا السوفيتية ، والذى يبعث كل تصريح سياسى هام له على الأمل أو الخوف فى قلوب مئات الملايين فى أنحاء العالم ؟

من المشكوك فيه أن يكون ثمة رجل ـ خلال حياته نفسها ـ كان له هذا التقدير الكثير والمتفاوت الاختلاف كما هى الحال بالنسبة لستالين . فثمة كاتب أمريكى رآه كثيرا ينفر من شكله وهيئته و يؤكد أن وجهه يحمل آثار الجدرى وأن أسنانه رديئة. وثمة سفير أمريكى سابق فى الاتحاد السوفيتى كتب عن عينيه البنيتين الحانيتين اللطيفتين وقال « إن الطفل ليحب أن يجلس على ركبتيه » ووصفه ونستون تشرشل عقب اجتماعهما الأول كحلفاء فى الحرب بأنه رجل ذو شجاعة ومقدرة لاينفدان وقال إن ستالين تركه « وقد انطبعت فى نفسه الحكمة الهادئة العميقة وفقدان الوهم من أى نوع كان » . وأعرف شيوعيا غير روسى يتملكه نوع من الرعب والخوف من ستالين

حتى إنه ليتحاشى ذكر اسمه فى الأحاديث الخاصة ويشير فى همس إلى « الرجل ذى الشارب » .

وقطعا كان ستالين مكروها ومهيبا من كثيرين من زملائه فى سنى تكوين الاتحاد السوفيتى . وهؤلاء الآن إما فى المنفى أو أموات . ولينين نفسه الذى كان من غير شك شديد التحمس لكفاءات ستالين أثناء معظم حياته يقرر بعض المترجمين له خصومته لستالين وأنه ترك وصية سياسية يدعو فيها إلى استبدال آخر بستالين فى منصب السكرتير العام للحزب لفظاظته وشهوته للحكم والسلطان .

ويرجع هذا الاختلاف البيّن فى تقدير ستالين إلى أن معظم الذين قابلوه وكتبوا عنه ، قد فعلوا ذلك من وجهة نظر معينة ، سياسيا وموضوعيا ، وهو الرجل الذى سيملأ فى تاريخ العالم صفحات أكثر من تلك التى ملأها نابليون .

والحقيقة هى أن قليلا جدا من الناس فى العالم بل وحتى قليلين فى روسيا نفسها يعرفون ستالين . إنه أقوى حاكم فى العالم وأقل حاكم ألفة وإيناسا . فهو منعزل عن شعبه كما هو منعزل عن الأجانب بحوائط الكرملين الحاجزة وبالحشد من البوليس المعين لحمايته وبالسرية التامة المفروضة على حياته الشخصية . فالأمريكيون فى موسكو لا يعرفون بالتأكيد أين يعيش ستالين خارج الكرملين ويعتقدون أن مقره الريفى يقع فى منطقة فى الشمال الغربى من المدينة حيث يقيم رجال الحكومة الآخرون وحيث حماية البوليس الواسعة النطاق ، ولكنهم لا يستطيون أن يحددوا بالضبط منزله . والروس أنفسهم لا يعرفون إن كان قد تزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته الثانية عام ١٩٣٢ أم لا . وستالين عند معظمهم اسم ورمز للرجل الذى لا يرونه أبدا . وحتى فى المظاهرات الكبرى فى الميدان الأحمر التى يستعرضها من قمة قبر لينين

لا يراه عن بعد إلا المارة فى الميدان . أما الجمهور العادى فيكون بعيدا جدا عن مجرد أن يلمحه . وغاية ما نعلمه انه لا يمشى أبدا فى أحد شوارع موسكو ، ونادرا — إن لم يكن إطلاقا — ما يزور مصنعا أو منجما أو مزرعة جماعية . وقيل إنه قام فى أثناء الحرب بعدة رحلات إلى جبهات القتال ،ولكن لا يوجد دليل على أنه رؤى فى هذه الرحلات إلا من عدد قليل جدا من الضباط ذوى الرتب العالية و بالتأكيد لم يعلم أحد من الجنود فى الميدان بوجوده .

ولم نسمع عنه أبدا أنه سهر ليلة فى فندق سوفييتى، كما لم يسجل عنه أنه سافر مرة سفرة طويلة داخل الاتحاد السوفيتى ورآه الناس . وأهم ظهور غير رسمى له كان فى العيد الرياضى السنوى فى استاد الدينامو الضخم فى ضواحى موسكو . وهو يلقى خطبه دائما فى مستمعين محدودين مثل مجلس السوفيت أو فى اجتماع الحزب الشيوعى ولا يلقيها أبدا فى حشد من عشرات الألوف كهؤلاء الذين كانوا يفدون ليستمعوا إلى خطب روزفلت أو تشرشل أو حتى هتلر وموسوليني عند ما كانوا يخطبون فى اجتماعات عامة لينشروا آراءهم وحججهم فى موضوعات السياسة العليا على الشعب مباشرة

إلا أنه رغما من كل ذلك فستالين كائن فى كل مكان فى روسيا . . إنه فى كل قرية أو دسكرة فى روسيا . . سدس سطح المعمورة . إنه معبود بمعنى الكلمة ، ومستحيل على غربى أن يتخيل أو يفهم المدح البالغ والزائد عن الحد الذى يغمره به الجمهور الروسى ،إذ تنظر إليه الملايين من الشعب الروسى على أنه مزيج من نصف إله وأب حنون .. إنه التصور الذى يبدو أن السيكولوجية القومية الروسية محتاجة إليه . وصورته معلقة فى كل مكتب سوفيتى وفى كل حجرة من كل مدرسة وفى كل فرع للحزب وفى كل منزل شيوعى . وتمثاله مقام فى كل متنزه وفى معظم محطات

السكك الحديدية والمطارات وقطعا فى كل مبنى عام لا كالدور الحكومية فحسب بل أيضا كالفنادق ومحطات نفق موسكو . وفى المناسبات القومية مثل عيد الثورة السنوى الذى يحتفل به الشعب الروسى فى ٧ نوفمبر من كل عام تزين صور ضخمة لستالين وزعماء المكتب السياسى كل مدينة وكل قرية .

ومن هذا الدليل الذى لا حياة فيه « يعرف » الشعب الروسى عن زعيمه . وقد ظلت صوره لا تتغير لعدة سنوات . واهتز الروسيون باخلاص فى الأيام الأخيرة للحرب عندما وزعت عليهم صور جديدة لستالين ، وفيها ظهر شعره أشيب . وعندما لصقت هـذه الصور أولا على نوافذ مكتبات موسكو للبيع ، جذبت إليها حشودا ضخمة تدقق فى النظر إليها . وعلق كل شخص تقريبا فى تعجب قائلا أن ستالين أيضا تتقدم به السن . ولسبب عدم اتصال أهل موسكو به فانهم مثلهم مثل عامة الناس فى الاتحاد السوفيتى استقر بهم التفكير إلى أنه لا يجوز عليه السن .

ولا تُنشر أبدا أنباء نشاطه اليومى . ولا تُعرف مطلقا قائمة زواره الرسميين كتلك التى يذيعها البيت الأبيض على الصحافة الأمريكية ، اللهم إلا البلاغ الذى ينشر من حين لحين بأنه استقبل سفيرا أو سياسيا أجنبيا أو أنه كان مضيفا لمجموعة من الزائرين فى مأدبة بالكرملين . وخطط نشاط ستالين القادمة سواء تضمنت السفر داخل روسيا أم لم تتضمن ، يحتفظ بها فى سرية دقيقة فى السلم كما فى الحرب . وعندما يذهب فى إجازاته إلى البحر الأسود حيث كان يمضى وقتا أطول فى السنوات الأخيرة ، لا يُعلن عن ذلك أيضا . ويعرف الأجانب بذلك فقط عندما يطلب ديبلوماسى مقابلة ستالين فيجاب بأن هذا غير ممكن لأن المارشال ليس فى المدينة .

وحتى ساعات عمل ستالين فى مكتبه بالكرملين عكس ساعاتنا . فهى تبدأ من وقت متأخر بعد الظهر إلى الصباح المبكر . وهذا هو السبب فى أن المقابلات النادرة التى تُعطى للديبلوماسيين الأجانب تُحدد عادة بين التاسعة مساء ومنتصف الليل . وطبيعى أن كبار الموظفين السوفييت يعدّلون ساعات يوم عملهم ليوافق يومه . وكانت النتيجة أن الأمريكيين الذين يحتفظون بالنظام الغربى المعتاد لوقت المكتب وهو من التاسعة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر يجدون من المستحيل تقريبا أن ينجزوا أى عمل يتطلب اتصالا أثناء الساعات قبل الغداء حتى منتصف بعد الظهر .

وستالين ، عند مقابلته وجها لوجه ، ليس بأية حال شخصية غير جذابة كما وصفه بعض الكتاب . بل بالتأكيد إنه ذو سحر طبيعى عندما يريد أن يظهره، وهو ليس بالطويل وإنما هو ربع ومنتصب القامة ويعطى انطباعا بأنه ذو صحة جيدة ، ومنذ ابتداء الحرب ترك زيه الرسمى القديم .. زى الحزب المكون من بنطلون كاكى ومعطف بسيط كان يزرره حتى الرقبة ولم يكن يضع عليه أية أوسمة . وهو يظهر فى المقابلات العامة ويستقبل الزوار الأجانب فى الزى الرسمى لمارشال الاتحاد السوفيتى وعليه عادة نيشان واحد فقط هو النجمة الذهبية لبطل الاتحاد السوفيتى .

وقد لاحظت بصعوبة آثار الجدرى التى أكدها بعض الكتاب الأمريكيين . وأعظم قسمات وجهه جاذبية .. عيناه الحادتان السوداوان اللتان تضيئان عند ما يكون ثمة أمر يهمه . وفيهما يقظة وتعبير وذكاء . وهو هادئ وبطىء وواثق من نفسه . وعندما يحتد فى المناقشة (وهو لا يحتد إلا عندما يريد) يبدو فى قوة وعافية .. فاذا

ما زاد احتداده كان فظا ، وقد بلغنى أنه أشار إلى نفسه فى شبه اعتـذار على أنه « رجل عجوز فظ » .

وكثيرا ما أعود بذاكرتى إلى الوراء .. إلى مقابلتى الأولى لستالين . لقد أخبرنى فيها بأن روسيا سوف لا تذهب « أبعد كثيرا » ، وأنه بالرغم من اختلاف نظامينا السياسى والاقتصادى فان أشكال حكوماتنا ووسائلنا فى الحياة ليست متضادة ، وأننا بالصبر والعزيمة الطيبة يمكن أن نحل أية خلافات تقوم بيننا ... ومثل هـذه التصريحات ، مأخوذة بقيمتها السطحية ، هى ما كان يبعث على الأمل فى العالم خلال السنوات الأربع الماضية ، ثم أثبت الزمن وأثبتت الحوادث أنها كانت فى الغالب مضللة . وإنى لأندهش الآن من أن الرأى العام العالمى لا يزال يتأرجح بين أعماق الكآبة وقمم التفاؤل و بالعكس ، عند إدلاء ستالين بتصريح سياسى هام لزائر أجنبى أو أجاب على سؤال من أحد المراسلين الأجانب . وهناك ، فيما أعتقد ، اعتقاد خاطىء شائع وخطير ، وهو أنه بينما يتشدد زعماء السوفيت الآخرون مثل مولوتوف وفشنسكى ويبدون روحا عدائية فان ستالين ليس كذلك . بل إنه رجل فى أساسه معقول وأن بوسعه إذا أمكن الاتصال المباشر به شرح أية مشكلة وجعلها تُحل عن طريقه .. فكل شىء سيكون على ما يرام !!

وقد نُشر كاريكاتور ، منذ بضعة سنوات خلت ، مصورا هذه النقطة جيدا . إذ قُسِّم مربع الكاريكاتور إلى ستة عشر مربعا أصغر (٤ × ٤) . ورسم فى المربع الأول منها العالم مرسوما ككلب ذليل يتلوى بسرور بعد أن تلقى « نقرة » على ظهره من ستالين الرحيم ، وفى الثانى الكلب يعوى فى ألم بعد أن أخذ « رفسة » شديدة من مولوتوف . وكان الثالث تكرارا للأول ، والرابع تكرارا للثانى وهكذا خلال الستة عشر مربعا .

وظاهر أننا نتعلم فقط الطريقة الوعرة ، وننسى أن مبادىء وأهداف البلشفية قد فُصِّلت أكثر من مرة .. أولا من لينين ، ثم من ستالين الذى كرر تأكيده بأنه تلميذ لينين المخلص الأمين . وحديثا جدا .. فى ٢١ يناير عام ١٩٤٦ فى الاحتفال السنوى بذكرى وفاة لينين قال الكسندروف ، مفكر الحزب الشيوعى ، فى حضرة ستالين وأعضاء المكتب السياسى الآخرين « تستطيع أرضنا السوفيتية أن تفخر بزعمائها الذين يعملون فى ميدان السياسة الخارجية لدولتنا وفق خطط (تكتيكات) لينين »

ماذا إذن علَّم لينين ؟ . لقد ألقى بيانين هامين عن الوجود المشترك بين الاتحاد السوفيتى والدول الرأسمالية فى سلام . ففى مؤتمر الحزب الشيوعى عام ١٩١٩ قال : « إننا نعيش ليس فقط فى دولة بل فى مجموعة دول . ووجود الجمهورية السوفيتية جنبا إلى جنب مع الدول الاستعمارية أمر لا يُعتقد . فأحدهما يجب أن ينتصر فى النهاية . وقبل أن تجىء هذه النهاية سيكون لا مفر من سلسلة من المصادمات المخيفة بين الجمهورية السوفيتية والدول البرجوازية » .

ثم فى عام ١٩٢٠ ، فى خطاب ألقاه على أعضاء الحزب فى موسكو كرر هذه النظرية فى الكلمات الآتية : « طالما توجد الرأسمالية والاشتراكية ، فلن نستطيع العيش فى سلام . وسوف تنتصر فى النهاية واحدة أو أخرى منهما ، وتندب ندابة مآتم إما على الجمهورية السوفيتية وإما على الرأسمالية العالمية » . واستطرد يقول « نحن الآن بين عدوين ، فاذا لم نكن قادرين على هزيمتهما معا فيجب أن نعرف كيف نتصرف فى قواتنا بكيفية تجعلهما يتشاجران فيما بينهما ، لأنه كما هى الحال دائما ، عندما يتشاجر اللصوص يحصل الأمناء على حاجياتهم . ولكن حينما نكون أقوياء لدرجة كافية لهزيمة الرأسمالية كمجموع فسنأخذها فورا من قفاها »

وفى مؤتمر آخر للحزب ، وذلك فى عام ١٩١٨ قال لينين « لكيلا نَضيع ونُبدد فى فترات الانسحاب أو التقهقر أو الهزيمة المؤقتة أو عندما يقذف بنا العدو إلى الوراء فالشىء المهم والوحيد الصحيح نظريا هو ألا ننبذ برنامجنا الأساسى القديم » .

ومع ذلك فمنذ وفاة لينين والبرنامج الأساسى القديم يُنبذ . فلقد عدِّل وأُضيف إليه ، ولكنه لم يُرفض أبدا أو يُنسى .

وعندما ألقى ستالين خطابه الانتخابى الأول بعد الحرب فى ٩ فبراير عام ١٩٤٦ أكّد نظرية لينين فى العداء الرأسمالى . ومما يجدر ملاحظته أن هذا الخطاب كان موجها إلى الشعب السوفيتى وليس للأجانب . ومع أن كثيرا من أقوال ستالين الأخرى كان يتناقض من نفس شفتيه أو تنقضه الحوادث، فان النظرية الجوهرية فى هذا الخطاب والتى تذكر العداوة الأساسية بين النظامين لم تتناقض أبدا منه ولم يحدث شىء واحد ينقضها .

وقال ستالين فى جزء من هذا الخطاب :

« إنه لمن الخطإ الظن بأن الحرب قامت مصادفةً أو نتيجةً لخطأ بعض السياسيين . فبالرغم من أن هذه الأخطاء وقعت فعلا إلا أن الحرب قامت فى الحقيقة كنتيجة حتمية لتطور قُوَى العالم الاقتصادية والسياسية على أساس الرأسمالية الاحتكارية .

« .. وتوضح تعاليمنا الماركسية أن النظام الرأسمالى للاقتصاد العالمى يخفى عناصر الأزمات والحروب وأن تطور الرأسمالية العالمية لا يتبع فى تقدمه نهجا ثابتا متعادلا بل يتقدم عن طريق الأزمات والكوارث . ويؤدى التطور غير المتعادل للدول الرأسمالية فى الحين المناسب إلى اضطرابات حادة فى علاقاتها .ومعروف أن مجموعة الدول التى تعتبر نفسها لم تُعْطَ الكفاية من المواد الخام وأسواق التصدير، تحاول عادة أن

تغير الوضع لصالحها عن طريق القوة المسلحة . وكنتيجة لهـذه العوامل ينقسم العالم الرأسمالى إلى معسكرين متعاديين وتنجم الحرب عن ذلك » .

وعندما نقارن بين ما قاله ستالين للأجانب وما قاله لشعبه فى التعاليم الأساسية للحزب الشيوعى نجد من المستحيل الهروب من النتيجة الحتمية وهى أن ستالين قدير على مناقضة نفسه ، وحتى إذا لزم الأمر ، قدير على غش مستمعيه عن عمد .

إنه إذن ضرورى لفهم الاتحاد السوفيتى اليوم أن نتذكر حقائق خاصة عن ستالين . .

فأولا هو جورجيانى لا روسى . وإن من الغريب أن نجد فى التاريخ كثيرا من الشعوب العظيمة تقبل زعامة أشخاص غامضين من مناطق الحدود لا يماثلون العناصر الأساسية فى هذه الشعوب . وفى هـذا الصدد على الأقل نجد ستالين يُقارَن بنابليون وهتلر . ومن المحتمل أنه لا يفكر الآن فى نفسه كجورجيانى ، وقطعا قد أصبح واحدا من أعظم الشخصيات الروسية الوطنية ، ولـكنه لا تزال عنده جميع الصفات الحسنة والسيئة التى ورثها بالولادة . فهو شجاع ولـكنه حَذِر متشكك ميال إلى الانتقام . . سريع الغضب ، لا يرحم ، واقعى ، حاسم ، وسريع فى تنفيذ خططة عندما يكون الهدف واضحا ، ولـكنه صبور واسع الحيلة وحذر فى تـكتيكاته عندما يكون الموقف غامضا . وهو كما عبر واحد من أحنك رجالى بالسفارة ، « يشبه بطلا جورجيانيا حقيقيا ـ فهو صديق طيب وعظيم أو عدو خطير لا يرحم . ومن الصعب عليه أن يكون شيئا آخر بين هذين النقيضين » .

وثانيا .. هو منعزل عن العالم الخارجى .. منعزل عن نفس شعبه . فمثلا «لينين» تجول فى أنحاء الاتحاد سنوات واختلط بالفلاحين والعمال ورأى الحياة كما يراها الآخرون .

أما ستالين فمنذ وصل الحكم لم يعمل شيئا من هذا أبدا . فهو يذهب ويعود من الكرملين إلى منزله الريفى فى نفس الطريق المحروس بمنتهى العناية ، ويتخذ من الاحتياطات الدقيقة لسلامته ما يجعل من المحتمل أنه لم يعد يستطيع معرفة شعبه اليوم إلا عن طريق أعين الآخرين .

وحيث إن الأمر كذلك .. فكم يكون أكثر جهلا بالعالم الغربى ؟!

وسنوات تكوينه وشبابه قضاها فى أجواء المؤامرات الثورية ، كما قضى جانبا كبيرا من حياته « تحت الأرض » ـ هاربا أو مختفيا ـ أو فى المنفى . ولم تستطع تجاربه أن تخفف الاتجاه الشرقى فى تفكيره فمن غير المستطاع له أن يفهم التفكير الغربى وأن يقدر السماحة الانجلوسكسونية فى المعارضة والاعتدال فى معالجة المشاكل الكبرى القومية والدولية ، حتى ولو شرح له ذلك بدقة ممثلوه فى الخارج الذين يثق فيهم كل الثقة . والاحتمال بعيد جدا أن يكون هؤلاء الممثلون يقومون بارسال تقارير دقيقة أو تقارير موضوعية عن مشكلة ما . فوجهات النظر السوفييتة الرسمية توضع له فى الحزب بتطويل وتفصيل يلونان آراءه وملاحظاته . ولذا فستالين يجب أن يعتمد ، بحكم المسلك والتجربة والبيئة ، اعتمادا كليا على بضعة أصدقاء ومستشارين وثيق الصلة به بين جدران الكرملين . ونتيجة لجهل ستالين للغرب ، ومسلكه الجورجيانى المتشكك ، وعزلته ، فقوة هؤلاء الأصدقاء والمستشارين لا بد وأن تكون عظيمة للغاية . وإذن ففى مسلك هؤلاء المستشارين وفى علاقاتهم بستالين يجب أن نبحث عن الاجابات على كثير من المظاهر المحيرة للسياسة السوفيتية الخارجية وللموقف السوفيتى تجاه الولايات المتحدة وأوربا الغربية .

الفصل الرابع

رجال الكرملين

« لقد انتقلت الزعامة كلية وكاملة إلى أيدى حزب واحد . . إلى أيدى حزبنا الذى لايقاسمه ، ويجب ألا يقاسمه حزب آخر، قيادة الدولة . وهذا مانعنيه بدكتاتورية الطبقات العاملة » .

ـ ستالين : ثورة أكتوبر (١٩٣٤)
« النداءات الثلاثة الأساسية » ص ١٤١

إن أعضاء المكتب السياسى هم الشخصيات السياسية الوحيدة فى الاتحاد السوفيتى المعروفة على أساس وطنى واسع النطاق . وبما أن الروس نادرا مايرون زعماءهم ، فانهم يتعرفون إليهم من صورهم التى تُعلق على المبانى العامة فى المناسبات الوطنية . والعضوية فى المكتب السياسى شرط ضرورى للعرض فى هذا الرواق الصورى . والسياسيون الأقل مرتبة والذين يدخل فيهم أعضاء مجلس الوزراء لايعرفون إلا إقليميا أو إلى جزء من السكان . . ولكن ليس إلى الشعب كله كمجموع .

ومعظم الأمريكيين ـ فيما أحسب ـ يتصورون المكتب السياسى كنوع من مجلس وزراء أعلى فى قمة نظام حكومى ذى سلطة ، يشاطر ستالين سلطاته الديكتاتورية ولكنه تابع له . وبمعنى واسع عام ، هذا حقيق ، لأن أعضاء المكتب السياسى هم الرجال الذين يسيِّرون الاتحاد السوفيتى .

فأولا . . المكتب السياسى ذراع للحزب الشيوعى وليس للحكومة السوفيتية نفسها ولاشك أن هذا الاختلاف طبعا ظاهرى أكثر منه حقيقى فى نظام سياسى يسمح فقط بالحزب الواحد ولكنه اختلاف بارز وهام . فمنذ تسلم البلشفيون الحكم اهتموا بأن يكون قانونهم منفذا عن طريق الأداة الحكومية بدلا من الأداة الحزبية. وكما جاء فى كتاب «دليل الاستفزاز» الذى نُشر فى عام ١٩٤٧ «أن الحزب الشيوعى للبولشفيين فى جميع الاتحاد هو القوة المنظمة والموجهة فى الحكومة السوفيتية ، والقلب والعقل والروح للشعب ، والزعيم والمعلم للعمال » .

وثانيا : ترتكز سلطة المكتب السياسى على نظام مهيمن أملاه ستالين بعد أن أقام إشرافا مطلقا على الحزب والحكومة معا . هذه الهيئة هى — نظريا وحسب دستور الحزب — فقط لجنة فرعية تابعة للجنة المركزية العامة للحزب الشيوعى ، ومفروض فيها أن تكون محكمة عليا للحزب بين المجلس السوفيتى . واللجنة المركزية كُوِّنت أصلا من عدد قليل من صفوة الحزب الذين كانوا يجتمعون كثيرا ويصلون سريعا إلى قرارات حاسمة . فلما وصل الحزب إلى الحكم وزاد عدد أعضائه وزادت مسئولياته . . ازداد حجم اللجنة المركزية حتى أصبح مربكا . فرؤى أنه من الأوفق أن تتكون داخل اللجنة لجنة أصغر عددا تناقش وتقرر سياسة الحزب على أن تعرض قراراتها طبعا على اللجنة المركزية للموافقة عليها واعتمادها .

وكُوِّنت فى نفس الوقت مجموعتان أخريان هما مكتب الحزب والسكرتارية . وأصبح ستالين عضوا هاما فى الهيئات الثلاث عند ما كان لينين لايزال على قيد الحياة وفى قوته . ولكن كانت وظيفة ستالين كرئيس للسكرتارية هى التى ساعدته على أن يضع فى المراكز الرئيسية رجالا من اختياره . فاستطاع بذلك أن يخلق لنفسه هيئة قوية من

رجال اختارهم بنفسه ، عندما بدأت المعركة من أجل السلطة بينه وبين تروتسكى . وعندما كسب هذه المعركة كان قديرا على أن يفرض على اللجنة المركزية سيادة المكتب السياسى الذى عمله هو ، وأن ينتخب لهذا المكتب الرجال الذين يختارهم . وفى عام ١٩٢٩ أكد ستالين انتهاء الانشقاق داخل الحزب وسيادته هو باعلان تلك القرارات التى اتخذها المكتب السياسى بالاجماع . وخلال نظام من « إدارات مشتركة » أصبح المكتب السياسى يشرف على الحزب والحكومة معا .

مَنْ هم إذن هؤلاء الرجال الذين يشاطرون ستالين السلطة والذين باتصالهم الدائم به يكون لهم هذا التأثير العظيم على قراراته ؟

إن المكتب السياسى ، بعد موت اندريه زادنوف عام ١٩٤٨ وفصل نيكولا فوزنيسنسكى دون معرفة الأسباب فى ربيع ١٩٤٩ ، أصبح يتكون من الأحد عشر عضوا الآتية أسماؤهم بالاضافة إلى ستالين :

١ ـ فيشسلاف ميخالوفيتش مولوتوف : ٥٩ ، مواطن روسى ، النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء وعضو فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٢٦ وعضو فى مجلس السوفيت الأعلى ووزير سابق للشئون الخارجية .

٢ ـ جيورجى ماكسيمليا نوفيش مالينكوف : ٤٨ ، مواطن من جورجيا ، نائب لرئيس الوزراء ، عضو بالمكتب السياسى منذ عام ١٩٤٦ ، والسكرتير العام للحزب الشيوعى وعضو فى مكتب الحزب وعضو فى مجلس السوفيت الأعلى .

٣ ـ لافرنتى بافلوفيش بيريا . (اتهم بالخيانة وتم اعدامه أخيرا) : ٥٠ ، من جورجيا ، نائب لرئيس مجلس الوزراء ، وعضو فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٤٦ وعضو فى مجلس السوفيت الأعلى ، ومارشال الاتحاد السوفييتى ، ووزير سابق لأمن

الدولة ، والشئون الداخلية ، والمعتبر رئيسا للمخابرات الخاصة بالطاقة الذرية .

٤ ـ نيكولا الكسندروفيتش بولجانين : ٥٤ ، مواطن روسى ، نائب لرئيس مجلس الوزراء ، وزير سابق للقوات المسلحة ، عضو مناوب فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٤٦ وعضو دائم منذ عام ١٩٤٨ ، عضو بمجلس السوفيت الأعلى ، عضو فى مكتب الحزب ، جنرال الجيش .

٥ ـ لازار مواسيفيتش كاجانوفيتش : ٥٦ يهودى أوكرانى المولد ، نائب لرئيس مجلس الوزراء ، عضو فى المجلس الأعلى ، عضو فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٣٠ .

٦ ـ اندريه اندريفيش اندريف : ٥٤ مواطن روسى ، نائب لرئيس مجلس الوزراء ، رئيس مجلس شئون المزارع الجماعية ، عضو فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٣٢ ، عضو فى مكتب الحزب من ١٩٢٦ ـ ١٩٤٦ ، رئيس لجنة الاشراف على الحزب ، عضو فى مجلس السوفييت الأعلى .

٧ ـ نيكيتا سيرجيفيش خروشتشيف : ٥٩ ، أوكرانى المولد ، رئيس لمجلس وزراء جمهورية أوكرانيا السوفيتية الاشتراكية ، عضو فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٣٩ وعضو فى مجلس السوفيت الأعلى .

٨ ـ أليكسى نيكولايفيش كوسيجين : نائب لرئيس مجلس الوزراء ، عضو مناوب فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٤٦ وعضو أصيل دائم منذ عام ١٩٤٨ ، عضو فى مجلس السوفييت الأعلى ووزير للمالية .

٩ ـ أناستاس إيفا نوفيش ميكويان : ٥٤ ، أرمنى من جورجيا ، نائب لرئيس مجلس الوزراء ، عضو فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٣٥ ، عضو فى مجلس السوفييت الأعلى ، ووزير سابق للتجارة الخارجية .

١٠ ـ نيكولا ميخايلوفيش شفرنيك : ٦١ ، مواطن روسى ، رئيس مجلس السوفيت الأعلى (اسميا رئيس الدولة) ، عضو مناوب فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٤٤ ، السكرتير العام السابق لمجلس الاتحادات التجارية فى جميع الاتحاد السوفيتى منذ عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٤٤ .

١١ ـ كليمينتى افو يموفيش فورشيلوف : ٦٨ ، مواطن روسى ، نائب لرئيس مجلس الوزراء ، عضو فى المكتب السياسى منذ عام ١٩٢٦ ، عضو فى مجلس السوفييت الأعلى ، قومسيير سابق للدفاع من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٩ والرئيس السابق للجنة الحلفاء للاشراف على المجر من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٤٧

* * *

هؤلاء الرجال ، رجال متكرسون بكل مافى الكلمة من معنى . وهم يمثلون كمجموعة النموذج الفعلى للدكتاتورية . وهم بلا استثناء أذكياء قديرون متعودون على حب النظام والطاعة مكافحون لايملون العمل . وأشك أن يكون ثمة أى سياسى فى العالم يعمل بجد ونصب نصف مايعمل هؤلاء . إنهم رجال ستالين ، مخلصون له ويدينون بتبوئهم مراكزهم إليه وإلى تقديره لجداراتهم وكفاءاتهم

وأعتقد أنهم لا يرحمون أبدا بل شنيعون فى تصميمهم على الاحتفاظ بالسلطة لأنفسهم وللحزب الشيوعى الذى حل فيه مذهب ستالين محل المذهب الماركسى الخالص .

وهؤلاء الذين يعتذرون عن النظام الشيوعى ويجادلون بأن مانعتقده طغيانا حديديا لم يكن أبدا لينتج هذه الذروة من الشجاعة والجلد التى أبداها الشعب الروسى خلال سنوات الحرب . . هؤلاء يجهلون الحقيقة بأن عبيد الأرض الروس قد أبدوا شجاعة

وجلدا مماثلين فى مناسبات سابقة مماثلة بدون الآمال التى كان يبثها الحزب فى المناسبة الأخيرة (الحرب الأخيرة) .الا أنه صحيح حقا أن واحدة من الحكومات القيصرية الضعيفة الفاسدة لم تكن لتستطيع الصمود ولو لجزء من هذا الضغط وهذه الشدة اللذين تحملهما الحزب الشيوعى المنظم وتغلب عليهما لينتصر فى النهاية ويخرج حتى أكثر قوة .

والشىء الذى له مغزاه الأكبر . . أن هذه الجماعة الصغيرة التى تتبوأ القمة العليا للسلطة فى الاتحاد السوفيتى . . ظلت لنحو عشر سنوات و إلى وقت قريب جدا دون أن يحدث فيها تغيير فعلى .

وقبل عام ١٩٣٨ كانت ثمة فترة تحدث فيها التغييرات فى المناصب الحكومية العليا بسرعة لا تماثلها إلا تلك التى تكون خلال الفترات التاريخية للاضطرابات الثورية .

و بعد ١٩٣٨ صارت أهم الشخصيات فى الحياة السوفيتية مثبتة ومستقرة فى مناصبها بدرجة تبرر التعليق التهكمى لأحد المراقبين الأجانب من أنه لم يستطع أحد البقاء حيا بعد سنوات التطهير مالم يكن قد منح هبة الخلود وعدم الموت .

و لم تحدث حتى ميتات هامة بعد هذا التاريخ إلا أخيرا عند ما مات زادانوف ثم ميخائيل إيفا نوفيتش كالينين رئيس الدولة الوقور الذى كان محترما للغاية والذى كان محبوبا من الفلاحين . وقد مات كالينين بعد وصولى إلى روسيا بفترة وجيزة . وكان كالينين قبل موته قد استعفى من الحياة السياسية العاملة بسبب السن والمرض .

وقريبا جدا أسقطت عضوية المكتب السياسى عن العضو المناوب فوزينسكى دون أدنى إيضاح . إلا أن خروجه لم ينف الفكرة العامة الحبيسة فى الصدور من

أن المكتب السياسى طريق مسدود والمخرج الوحيد منه يكون عن طريق الخانوتى .

وخلال هذه السنوات العشر لم تحدث تغييرات هامة حقيقية فى تشكيل اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ولا حتى فى المناصب الرئيسية فى فروع الحزب الاقليمية .

وليس لأحد من هؤلاء الرجال ، أعضاء المكتب السياسى ، ـ فيما عدا مولوتوف وميكويان ـ أية خبرة بالعالم الخارجى ولا معرفة بالساسة فى الخارج . وهم لا يعنون بالحياة الدولية على اتساعها سواء كانت سياسية أو اقتصادية الا فى قليل ، وفيما يتعلق بأثرها على سير الأمور الداخلية فى روسيا . والشيوعيون ليسوا مستقلين فى الحكم على الأشياء و إنما يسيرون خلف الحزب . ذلك أنه لا بد للمرء من عقلية دولية كيما يستطيع التسامى على التأثر بمثل ألوان الدعاية التى يغمر الروس بها العالم . والشيوعيون أبعد الناس عن أن يكونوا ذوى عقلية دولية ، على أن الصور التى يطبعها فى نفوسهم مايسمعون عن الحياة فيما وراء الاتحاد السوفيتى والاستنتاجات التى يكونونها لأنفسهم من هذا الذى يسمعونه وما يترتب على هذا كله ، جميع هذا ذو أهمية قصوى بالنسبة للعالم .

أما ماهى هذه الاستنتاجات وماهو أثرها على سياسة الاتحاد السوفيتى حيال الدول الغربية فهذا مالا يمكن أن نعرفه إلامن خلال معرفتنا لأولئك الذين يبدو أنهم ذوو نفوذ كبير لدى ستالين .

لقد دُهِش العالم دهشه كبرى فى الربيع الماضى حين سمع باقصاء مولوتوف وميكويان عن منصبيهما فى وزارتى الخارجية والتجارة الخارجية على التوالى فى حين

أنهما من أكبر الساسة الروس دراية بالعالم الخارجى . ولقد كان البلاغ الرسمى الذى أعلن فيه إقصاؤهما مقتضبا جدا . فهو لم يقل إلا أنهما سيظلان نائبين لرئيس الوزراء. وقد دارت تكهنات واسعة النطاق حول ما إذا كان معنى هذا أن هناك انقساما فى الحكومة الروسية أو ما إذا كان مولوتوف وميكويان قد رقيا أو خفضت درجتاهما

ولما كان التعديل الوزارى يصحبه عادة تعديل فى الأسلوب السياسى الذى تسلكه موسكو ، فقد تساءل الكثيرون عما إذا كان أندريه فيشنسكى قد اضطلع بشئون وزارة الخارجية حتى يلين المسلك الشديد الذى سلكه مولوتوف ، ذلك المسلك الذى لم يكتب له النجاح والذى حدا بالغرب حقا إلى توحيد صفوفه وجمع شمله فى منظمة حلف شمال الاطلنطى وقضى على حصار برلين .

ولا يستطيع أى أنسان خارج الطبقة العليا من ساسة روسيا أن يعطى أية صورة ولو تقريبية لما هو واقع بين الطبقة العليا للحزب الشيوعى .

وكل مايستطيع الانسان أن يفعله هو أن يضم بعض الحقائق إلى بعض ليخرج منها بصورة ما ، و يبدو الآن أن التعديل الذى أُقصى فيه مولوتوف وميكويان كان أكثر من تخل عن الاسلوب الذى كانت تتبعه روسيا قبل الحرب أيام كان يُعهد بالوزرات إلى الفنيين لا إلى ساسة الدرجة الأولى . فقد كانت تلك السياسة تُعفى اعضاء المكتب السياسى من التبعات الإدارية وتتيح لهم فسحة من الوقت لمعالجة المشكلات العامة التى تواجهها الحكومة .

ومع أن التعديل الذى شمل مولوتوف وميكويان لم يكن تغييرا ذا أهمية فى

الطبقة الحاكمة السوفيتية ، فإنه من المؤكد كما يدل على ذلك طرد فوزينسينسكى — أن هناك تغييرا مستمرا فى نفوذ أعضاء المكتب السياسى نفسه .

وكلما فكرت فى مراقبتى للهباء الذى تحمله ريح السياسة الدولية لأعرف منه اتجاه هذه الروح ولأصل إلى الجواب الصحيح لسائر المشاكل التى تبحثها الصحف علنا وفى حرية فى سائر الدول غير الشيوعية ، كلما فكرت فى هذا تذكرت فقرة كتبها المراقب الفرنسى ديكوستين بعد أن زار موسكو سنة ١٨٣٩ فقد كتب ديكوستين يقول . . إذا كنا نجد الديبلوماسيين الروس خيرا من أقرانهم فى أكثر الشعوب مدنية ، فان هذا راجع إلى أن صحفنا تزودهم دائما بما هو حادث عندنا ، ولأننا نعرض كل صباح نقط الضعف فينا بدلا من أن نخفيها فى حين أن سياستهم البيزنطية تعمل فى الظلام وتخفى بمهارة كل ما يقع فى بلادها أو ما يدور حوله الفكر . فإن ما يتركوننا فيه من جهل يعمى أبصارنا . أما إخلاصنا فينير أمامهم السبيل . ونقطة الضعف فينا هى الثرثرة . أما نقطة القوة فيهم فهى السرية .

وهذا هو السبب الأول فى مهارة الساسة الروس »

لقد كُتبت هذه الفقرة منذ مائة وعشرة أعوام ولكنها تبدو وكأنما يتحدث بها ديكوستين عن أى ديبلوماسى فى موسكو اليوم، وخاصة حين عرض فيها لقلة المعلومات التى يمكن أن تُستخلص من الصحافة الروسية .

ولقد قضت علينا الضرورة أن نعنى بأية قائمة تُنشر محتوية على أسماء أعضاء المكتب السياسى المرشحين لتولى المناصب الوزارية ، وذلك لأننا نعتقد أن هذه القوائم وهى منظمة على غير الأساس الأبجدى وعلى غير أساس الأقدمية فى المكتب السياسى أيضا هى المقياس الصحيح لدرجات أعضاء المكتب ومراتبهم بعد ستالين . فقد نشرت

ثلاث قوائم لانتخابات شهر يناير سنة ١٩٤٦ وشهر يناير سنة ١٩٤٧ وشهر نوفمبر سنة ١٩٤٧ ووردت فيها أسماء أعضاء المكتب السياسى حسب الترتيب الآتى :

يناير سنة ٤٦	يناير سنة ٤٧	نوفمبر سنة ٤٧
١ — ستالين	١ — ستالين	١ — ستالين
٢ — مولوتوف	٢ — مولوتوف	٢ — مولوتوف
٣ — بيريا	٣ — بيريا	٣ — زدانوف
٤ — مالينكوف	٤ — زدانوف	٤ — فورشيلوف
٥ — ميكويان	٥ — فورشيلوف	٥ — بيريا
٦ — فورشيلوف	٦ — ميكويان	٦ — كاجانوفتش
٧ — أندرييف	٧ — اندرييف	٧ — إندرييف
٨ — زدانوف	٨ — كاجانوفتش	٨ — ميكويان
٩ — كاجانوفتش	٩ — خروتشيف	٩ — مالينكوف
١٠ — خروتشيف	١٠ — مالينكوف	١٠ — خروتشيف
١١ — شفيرنيك	١١ — فوزنيسنسكى	١١ — فوزنيسنسكى
١٢ — فوزنيسنسكى	١٢ — شفيرنيك	١٢ — شفيرنيك
	١٣ — كوزيجين	١٣ — بولجانين
	١٤ — بولجانين	١٤ — كوزيجين

ويلاحظ أن ستالين ومولوتوف ظلا ثابتين فى المركزين الأول والثانى ، أما بيريا الذى كان يحتل المركز الثالث فى يناير سنة ٤٦ ، ويناير سنة ٤٧ فقد نزل إلى المركز الخامس فى نوفمبر سنة ٤٧ .

وأما زدانوف ـ وهو الآن ميت ـ وقد كان يعتبر إلى عهد طويل كأبرز رجال

الصف الأول ـ فقد كان يحتل المركز الثامن فى شهر يناير سنة ١٩٤٦ ثم المركز الرابع فى يناير سنة ٤٧ ثم المركز الثالث بعد ذلك بأشهر قلائل . وأما مالينكوف فقد كان الرابع فى سنة ٤٦ ولكنه هبط إلى المرتبة العاشرة فى شهر يناير سنة ٤٧ ثم تقدم خطوة إلى الأمام فى شهر نوفمبر من العام نفسه فاحتل المركز التاسع . (وهو الآن رئيس مجلس الوزراء الذى خلف ستالين)

وجاءت انتخابات سوفييت موسكو فعززت الفكرة القائلة بأن هذه القوائم تصلح لأن تكون دليلا على مراتب أعضاء الحزب إلى حد ما .

فقد نشرت صحيفتا ازفستيا و برافدا فى صفحتيهما الأوليين ترشيح ستالين . وفى صفحتيهما الثانيتين قصة ترشيح مولوتوف وزدانوف ، أما سائر المرشحين الآخرين فقد حشدوا جميعا فى مقال واحد احتوى على أسمائهم فحسب . وقد وُصف مولوتوف فى مقالى الصحيفتين بأنه « أقرب زملاء ستالين إليه ، وأنه منفذ سياسة لينين ـ ستالين الخارجية » ، أما زدانوف فوصفته الصحيفتان بأنه « أكبر عامل فى الحزب البلشفى والحكومة السوفيتية » وأنه « من أساطين النظرية فى الحزب البلشفى » وأنه أكبر مناضل ضد الخنوع للأجنبى » وأما فورشيلوف فقد أُثنى عليه لدوره الذى لعبه فى تشكيل الجيش السوفيتى . وأما بيريا فلم يُشَر إليه كقائم بأية مهمة انذاك ، وربما كان هذا راجعا إلى طبيعة السرية التى تتميز بها مهمته (إذ كان يقال آنئذ أنه المشرف على الانتاج الذرى إلى جانب وظيفته) على أن الصحف قالت عنه إنه قام بدور مهم فى الحرب حين زاد من انتاج مواد التموين والامدادات ، وأما ما لينكوف فقد كان الثناء عليه من ناحية أنه زاد الانتاج الزراعى فى الصيف الماضى ، وأنه أدى خدمات جليلة لبلاده أيام الحرب .

وهناك موضوع لا ينقطع حوله الحدس والتخمين فى موسكو ، بل وفى كل وزارة من وزارات الخارجية وفى الصحف والمجلات فى شتى أنحاء العالم ، وهذا الموضوع هو « من ذا الذى يخلف ستالين ؟ »

و إذا أردنا الجواب على هـذا فان علينا أن ننظر إلى المـكتب السياسى ، و بصفة خاصة إلى أولئك الذين يبدون أقرب الناس إلى ستالين نظرا إلى ماضيهم وشخصياتهم وما تضفى عليهم الصحافة الروسية من بروز فى أوجـه نشاط الحزب الشيوعى .

ومولوتوف أشهر واحد بين هؤلاء سواء فى داخل الاتحاد السوفييتى أو فى خارجه ، وقد وصفته دائرة المعارف الروسية سنة ١٩٤٣ بأنه أقرب رفقاء السلام إلى ستالين ، ولـكن صحيفة البرافدا قالت عنه فى التاسع من شهر يناير سنة ١٩٤٧ نفس ما قالته عن فورشيلوف ، ولا شك أن مولوتوف ظل ثلاثين عاما أقرب المقربين إلى ستالين ، وهو مدين لستالين بحياته السياسية ، وقد سرد «والتر دورانتى» فى كتابه « ستالين وشركاؤه » قصة لا تزال متداولة ومقبولة فى موسكو ، تلك القصة هى أن ستالين اقترح يوما على لينين تعيين مولوتوف عضوا فى اللجنة المركزية نظرا لأنه عضو قديم موثوق به فى الحزب ، ولأنه أحد مؤسسى صحيفة برافدا ، ولـكن لينين قطب حاجبيه التتاريين وقال لستالين « ولماذا مولوتوف بالذات ؟ » وعدد ستالين خدمات مولوتوف فلم يسع لينين إلا أن قال « إذا كنت تريد أن تعرف رأيى فيه ، فهو خير كاتب أرشيف فى روسيا »

و إذا كان لينين قد قصد بهذه العبارة أن يقلل من قدر مولوتوف ، فإن خدمات

مولوتوف للاتحاد السوفييتى تقطع بخطأ لينين ، فقد انضم مولوتوف إلى الجناح البلشفى من الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى سنة ١٩٠٦ وقد اضطلع بعد الثورة بعدة مهام حزبية مهمة جدا أثبت فيها أهليته وكفاءته ، حتى حصل فى سنة ١٩٢٦ على شرف عضوية المكتب السياسى ، وفى ديسمبر سنة ١٩٣٠ أصبح رئيسا لمجلس الوزراء (مجلس قوميسارى الشعب انئذ) وظل فى هذا المركز حتى شغله ستالين نفسه سنة ١٩٤١ .وقد حل مولوتوف محل ماكيم ليتفينوف فى وزارة الخارجية فى شهر مايو سنة ١٩٣٩. ولايذكره الأجانب دائما إلا بهذه الصفة، وفى أثناء الحرب كان مولوتوف هو المسئول عن انتاج الدبابات الروسية وكان عضوا فى لجنة الدفاع الوطنى التى كانت صاحبه أكبر نفوذ فى روسيا .

أما أنا فانى أرى فى مولوتوف شخصية جذابة ، وهو دائما مجامل ومستقيم ، وهو يعتقد أن من المستحيل عليه أن يستريح راحة حقيقية فى وجود الأجانب ، وهو جامد حتى فى اللحظات التى يحاول فيها أن يكون مرحا ، ولم أسمعه يضحك ملء شدقيه إلا مرة واحدة . وقد كانت هذه المرة فى مأدبة أقيمت فى دار السفارة أيام انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية فى موسكو .

فقد كان مولوتوف و بيفن يجلسان فى طرف من المائدة و بينهما مسز سميث (زوجتى) وقد قصت علىّ زوجتى بعدئذ ما أضحك مولوتوف ، فقد كان و بيفن يتبادلان القصص ، وسرد مولوتوف على بيفن قصة عن طريق المترجم ، فرد بيفن بقصة أخرى طريفة جدا ، ولكنها غير متحفظة بالمرة ، عن لينين ، فما أن سمعها مولوتوف من المترجم حتى انفجر يضحك ملء شدقيه ، ولكن القصة أذهلت المترجم الشاب ترويانوفسكى الذى ذُهِل ضحك مولوتوف ، ولم يسع المترجم إلا أن

يتجه إلى مستر بيفن ويقول له فى كثير من الجد « نحن يا سيدى لا نتخذ من لينين مادة للتفكهة فى روسيا » !

ومولوتوف شديد جدا فى معاملته للممثلين السياسيين الأجانب ، وعنيد معهم لا تلين له قناه . ويبدو فى المؤتمرات وكأنما يهاجم خصومه مهاجمة صريحة محاولا احراجهم ، على أن نعومته وبراعته فى تنفيذ التراجع السياسى نعومة ملحوظة حتى لدى الشيوعيين . ولقد كانت تصريحاته الخاصة بالولايات المتحدة تمتاز بالسخرية اللاذعة . أما عناده وشدة بأسه فى المفاوضات فقد أهلاه بحق للإسم الذى يطلق عليه فى الحزب وهو « مولوت » أى المطرقة واسمه الحقيقى هو « سكريابين »

وكان معظم المراقبين الأجانب قبل الحرب يعتقدون أنه يناصر ألمانيا ويعادى فرنسا وبريطانيا . وحين حل محل ليتفينوف كوزير لخارجية الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٣٩ كان الكثيرون يتوقعون انقلابا فى سياسة روسيا الخارجية إذ أن المعتاد فى روسيا أن يُغير الرجال كلما أُريد تغيير السياسة . ومن هنا فشلت البعثة العسكرية الفرنسية الانجليزية إلى موسكو وهى بعثة هزيلة رُتبت فى آخر لحظة ولم يكن اخفاقها مفاجأة للعدد القليل من المطلعين من المراقبين للشئون السياسية الروسية .

ويُعزى إلى مولوتوف أنه هو الذى نظم اتفاقية عدم الاعتداء بين ألمانيا وروسيا ، وهى الاتفاقية التى وُقِّعت عقب وصول هذه البعثة بأسابيع قلائل والتى وصفها مولوتوف نفسه بأنها ضيقت شقة احتمالات نشوب المنازعات العسكرية فى أوربا . وفى شهر نوفمبر من العام الثانى قام مولوتوف

بأول رحلة له إلى خارج الاتحاد السوفييتى حيث زار ألمانيا . وقد وُصفت هذه الزيارة بأنها رد لزيارة رو بنتروب . على أن المؤكد أن الغرض من هذه الرحلة لم يكن إلا محاولة التغلب إن أمكن ـ على المشكلات القائمة بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا ولجس نبض ألمانيا ومعرفة كل ما يمكن معرفته عن نواياها . والتساؤل كثير حول ما تم فى هذه الرحلة . على أن جورنج قال بعد اعتقاله إن مولوتوف طلب انسحاب القوات الألمانية من فنلندا ورومانيا كما طلب أن تُعطى روسيا قواعد عسكرية على البسفور . وقد قال جورنج « حين سمعت مطالب مولوتوف كدت اسقط من مقعدى » ، ويقال إن هتلر كان فى ذلك مقتنعا بوجوب المسارعة إلى مهاجمة روسيا . وعلى كلٍّ فان هذه الرحلة زادت من حدة التوتر بين ألمانيا وروسيا بدلا من أن تخففها على الرغم من أن الاتحاد السوفييتى واصل إمداد ألمانيا بالمواد الغذائية والبترول والمواد الخام الاستراتيجية حسبما تقضى به المعاهدة التجارية القائمة بين البلدين حينذاك ، بل إن الاتحاد السوفييتى كان يعطى ألمانيا أكثر مما تقضى به نصوص المعاهدة . ولقد كان معظم قاذفات القنابل الألمانية التى ضربت لندن بقنابلها يُمون بالبترول الروسى، بل إن أول أسطول ألمانى دخل المحيط الهادى عن طريق مسالكه الشمالية وأغار على الاسطول البريطانى وكبّدَ السفن البريطانية والاسترالية أفدح الخسائر لم يدخل هذه المنطقة إلا بمعونة كاسحات الجليد السوفيتية .

وأول مرة تطأفيها قدما مولوتوف أرض الولايات المتحدة الأمريكية كانت سنة ١٩٤٢ . وقد زار الولايات المتحدة مرتين منذ ذلك التاريخ حتى الآن . أما مدام مولوتوف فقد زارت الولايات المتحدة قبل أن يزورها زوجها ،فقد كانت فى الولايات المتحدة سنة ١٩٣٦ وتناولت طعام الغداء فى البيت الأبيض ولها أخ فى الولايات

المتحدة يدعى « سام كارب » وهو مواطن أمريكى من رجال الأعمال فى ولاية كونكتكت » .

ومبلغ علم الأجانب أن مولوتوف ـ كمعظم المسئولين الروس ذوى الحيثية ـ شديد التزمت ، فهو لا يتحلى بالصفات التى لابد منها للانسان كالمرح وسرعة الغضب وما شاكل ذلك ، تلك الصفات التى تضفى جاذبية على فيشنسكى من بين طبقة المسئولين المسرفين فى التزمت ، والمحافظين فى سائر علاقاتهم مع الأجانب. فمولوتوف محافظ دائما ومنطوٍ على نفسه إلى حد البرود .

وقد يُحْرَج أحيانا إذا ما أُفْحِم فى أثناء مناقشة ما أو وقع فى مأزق فيها . وقد رأيته مرة واحدة وقد ارتج عليه بالفعل ، وكانت هـذه المرة عندما وقع حادث « كاسينكينا » فعند ذلك طلبنى سكرتيره بالتليفون قبيل منتصف الليل وطلب منى أن أحضر إلى وزارة الخارجية الروسية . ويبدو أننى بلغت الوزارة قبل الموعد المنتظر وصولى فيه ، فقد رأيت مكتب مولوتوف الخارجى يعج بالفوضى، وعهدى به دائما نموذجا للهدوء والنظام . وعلى كلٍّ فقد أُدْخِلت غرفة الاجتماع بعد انتظار لم يزد على خمس دقائق ، ولاحظت أن الورقة التى قرأ منها مولوتوف احتجاجه كانت مسودة أُعِدّت على عجل، ففيها كثير من التصحيح، وكانت ثورته بادية أثناء قراءته الاحتجاج. فكان غاضبا جدا ومنزعجا جدا . ولا غرو فهو وزير الخارجية الذى يرأس القنصلية التى هربت منها مدام كاسينكينا . وقد جرت بيننا مناقشة حارة استغرقت بضع دقائق أنكرتُ فيها ادعاءه باشتراك الحكومة الأمريكية فيما أسماه (« نشاط الحرس الأبيض والعصابات التى اختطفت وهرّبت مدام كاسينكينا ») . على أنه استرد هدوءه قبيل انتهاء الاجتماع وعاد كما كان وزير الخارجية المحافظ المتزن .

وكثير من المراقبين الغربيين يقرنون بين مولوتوف وبين تشدد السياسة الروسية نحو الغرب . والذى أعتقده أن هناك فى الواقع اختلافا فى الرأى فى المكتب السياسى حول علاقة روسيا بالدول الغربية . وأعتقد أن فى هذا المكتب جماعة معتدلة تريد تعزيز التفاهم مع الغرب لأنها ترى أن الاتحاد السوفييتى فى حاجة إلى حقبة من السلام لانقل عن عشر سنوات أو خمس عشرة ليعزز اقتصادياته وما كسبه فى الحرب. ولست أعنى بهذا أن أولئك المعتدلين يتنكبون الهدف الأساسى السوفييتى وهو سيطرة الشيوعية على العالم عن طريق الثورة العالمية . ولكنى أعنى أنهم يعتقدون أنهم فى حاجة إلى بعض الوقت كيما يستعدوا للمصادمات التى تهدف إليها هذه السياسة . وتعارض هذه المجموعة مجموعة أخرى عسكرية أقوى منها تؤيد سياسة مولوتوف فى استمرار الضغط والقيام بأعمال عدوانية والوقوف موقف العناد . وكان المظنون أن بيريا وزادانوف ـ حتى وفاته ـ فى هذه المجموعة الأخيرة ، فى حين أن الأجانب فى موسكو كانوا يرون أن ما لينكوف أكثر اعتدالا فى آرائه وإن كانت المعلومات عنه قليلة جدا واتصالاته بالخارج نادرة بحيث يصعب التأكد من صدق هذا الرأى عنه . وواضح أن الأحداث التى سبقت وفاة زادانوف فى العام الماضى ـ أيا كانت أسبابها ـ تدل دلالة واضحة على أن هناك انقساما فى صفوف المكتب السياسى .

وكان زادانوف مريضا منذ عدة أعوام . وقد كنت أجلس إلى جواره فى مأدبة اقيمت فى الكرملين فى خريف سنة ١٩٤٧ ، ولاحظت أنه لم يأكل أو يشرب شيئا فعلّقت على فقدانه شهيته ، فرد علىّ فى اقتضاب بأنه يتبع نظاما غذائيا خاصا . وقد كان فى ذلك الوقت فى حال حسنة لا يعوقه مرضه ـ أيا كان ـ عن العمل الشاق الساعات الطوال ، وقد تعود العمل الشاق منذ سنين .

وهناك كثير من الدلائل التى تشير إلى أن نوبة القلب التى سبقت وفاته والتى نجمت عن شلل فى قلبه إنما كانت الخاتمة التى توج بها الصراع الخفى الطويل الذى دام سنوات طوالا بينه هو وأنصاره من ناحية وبين مالينكوف وأنصاره من ناحية أخرى فى صفوف الحكومة الروسية .

وكان أندريه زادانوف النائب الأول لستالين لشئون الكومنفورم والحزب الشيوعى . وكان أحسن النظريين فى الحزب ، كما كان يُعتبر من بين أكبر المعادين للغرب وأكبر المعادين للأجانب فى الطبقة الروسية الحاكمة العليا . وإذا كان تعصبه هذا ضد الأجانب هو الذى حدا به إلى تحبيذ السياسة الروسية التى أخفقت فى يوغوسلافيا وفنلنده وبرلين أو إلى تأييدها ، فقد دفع ثمن ذلك غاليا ، هذا على الرغم من أن أعضاء المكتب السياسى فرادى لا يُتهمون علانية بالخطأ ، إذ أن سياسة روسيا إنما يقرها المكتب السياسى كله . وعلى هذا فإن فقدان زادانوف لنفوذه لا يرجع إلى تلك السياسة بحال ، وإنما يرجع إلى حادث أقل شأنا . وقد كان اعداؤه يهاجمونه فى شخص بورى زادانوف الذى يشيع الاعتقاد بأنه ابنه وبمهاجمة آخرين من أنصاره الذين وقفوا ضد الجانب الصحيح فى موضوع الوراثة . فحين أصبحت مسألة الوراثة من بين مبادىء الحزب وحين أعلن الخبير السوفييتى «لا يسنكو» بعد موافقة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أن الخصائص والصفات المميزة تتوارث وأن الإيمان بقانون مندل يعتبر بدعة فى الحزب هوجم زادانوف الصغير وغيره من أنصار زادانوف وحُقِّروا كما هوجم زادانوف نفسه بصفة المشرف على الناحية المذهبية فى الحزب فى عهد ستالين ومن ثم أفل نجم زادانوف ولمع نجم مالينكوف .

أما جورجى مالينكوف فلا يزال فى العقد الخامس من عمره وهو فى نظرى

شخصية فذة بين شباب البولشفيك ، وهو عضو فى الحزب الشيوعى منذ سنة ١٨٢٠ وأصبح عضوا بالتناوب فى المكتب السياسى منذ سنة ١٩٤١ . أى فى نفس الوقت الذى أصبح فيه بيريا عضوا فى المكتب . ثم فى سنة ١٩٤٦ أصبح عضوا دائما فى المكتب مع بيريا أيضا وكان مالينكوف يوما ما سكرتير ستالين الخاص ، وقدمّنه ستالين نفسه على تصريف الأمور الادارية فى الحزب الشيوعى ، فكان يعهد إليه بشئون الحزب شيئا فشيئا حتى أصبح فى سنة ١٩٤٦ أحد سكرتيرى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى وقت كان فيه من سكرتيرى هذه اللجنة ستالين وساسلوف و بو بوف و بونومارينكو . وعلى الرغم من التبعات الجسام التى اضطلع بها أيام الحرب فى اعادة تنظيم صناعة الطائرات ثم رئاسة لجنة تأهيل المناطق المحررة فانه لم يتخل عن إدارة مكتب التنظيم ولا عن رئاسة إدارة المستخدمين فى اللجنة المركزية . وقد كانت هاتان الهيئتان فى الحزب الشيوعى تتيحان له الاشراف على تعيين سائر كبار موظفى الحزب كما تتيحان له تعيين أنصاره الأذكياء فى المراكز الرئيسية . و بذلك سلك إلى الحكم نفس الطريق الذى سلكه ستالين من قبل .

ومالينكوف رجل بدين ذو وجه مستدير جامد . أما من الناحية العقلية فهو رجل ذكى كما يدل على ذلك نجاحه الذى أصابه أيام الحرب فى كثير من المراكز التى تُلقِى على عاتقه تبعات جساما . وهو مريض على أنه يبدو دائما فى الرداء المعروف عن أعضاء الحزب بسترته ذات اللون الداكن والمقفلة حتى عنقه .

أما بياناته العامة القليلة فكانت دائما قوية معقولة أو واقعية .

وقد تقلب مالينكوف صعودا وهبوطا . ويبدو أنه عُزِل عن سكرتارية اللجنة

المركزية عام ١٩٤٧ ثم عاد إليها مرة أخرى حوالى منتصف شهر يولية عام ١٩٤٨ . وكانت عودته هذه هى بداية النهاية لزادانوف ، وقد وَضَعت مالينكوف فى صفوف أقرب مستشارى ستالين إليه ، فكان فى صف مولوتوف و بيريا .

و يتولى الآن هؤلاء الثلاثة ، مولوتوف و بيريا ـ أُعدم أخيرا ـ ومالنيكوف ، أهم وظائف الحكومة السوفيتية ، . فمولوتوف هو النائب الأول لرئيس الوزراء وهو ساعد ستالين الأساسى منذ سنوات طوال وهو واسع التجربة فى شئون العلاقات الخارجية . أما مالينكوف فيشرف على جهاز الحزب ، وأما بيريا الذى دخل الحزب مع مالينكوف فيشرف على البوليس السرى الذى يسند الصرح السوفيتى السياسى الهرمى كله .

ولا فرنيتى بيريا من جورجيا كستالين، وهو صغير نسبيا كمالنيكوف ، فلقد بلغ الخمسين عام ١٩٤٩. وكان قد انضم إلى الحزب الشيوعى عام ١٩١٧ وقام بأعمال سرية مهمة جدا فى باكو وأذربيجان أيام الحرب الأهلية ، ورأس منظمة الأمن السوفييتية فى القوقاز من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٢٩ . ومنذ عام ١٩٢٩ أصبح قوميسير جورجيا للشئون الداخلية ثم أصبح بعد ذلك سكرتير الحزب لمنطقة القوقاز . وظل فى هذا المنصب سبع سنوات أدى خلالها خدمات لها شأنها وَمُنِح وسام العلم الأحمر من جورجيا ومن أذربيجان وأُنعِمَ عليه بوسام لينين . وفى عام ١٩٣٤ انتخب عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وفى صيف عام ١٩٣٨ حين بلغت حملة التطهير الكبرى ذروتها واهتز الحزب الشيوعى من أساسه و بلغ الذعر أقصاه وكانت الرئاسات فى ميدان الصناعة وفى الجيش فى حال من الانهيار المعنوى ، عين بيريا نائبا لرئيس البوليس السرى فكان الثانى فى زعامة هذه الهيئة بعد بيزوف (وقد حل بيريا محل هذا الأخير بعد خمسة أشهر) و كانت مهمته إعادة الاستقرار فى البلاد

ووظيفة رئيس البوليس السرى شؤم على شاغليها . فلقد غادر أسلاف بيريا هذا المركز ذا السلطان ليواجهوا المصير الذى أورده كل منهم للكثيرين . إلا أن بيريا يختلف فى شخصيته عن أمثال بيزوف وياجودا ودزهرشنسكى كما يختلف عنهم فى مظهره . فهو أشبه ما يكون بمدرس أو عالم بجبهته العالية وعينيه الثابتتين وفمه الجامد، وهو يتكلم فى هدوء وبتحفظ . وعلى الرغم من أنه يحمل رتبة مارشال الاتحاد السوفيتى إلا أننى نادرا مارأيته يرتدى زيها الرسمى . والصور المنشورة له فى هذا الزى قليلة .

وقد مُنِح بعد الحرب وسام بطل العمل الاشتراكى لما بذله أثناء الحرب من خدمات ممتازة فيما يتعلق بزيادة انتاج الأسلحة والذخائر .

وفى عام ١٩٤٧ أصبح أحد نواب رئيس مجلس الوزراء . وقد استقال من منصبه كوزير للداخلية فى يناير عام ١٩٤٦ إلا أن واجباته الرئيسية فى المكتب السياسى هى الإشراف على وزارتى الداخلية والأمن والبوليس السرى وقوته العسكرية الضخمة التى تتمثل فى جنود رائعى النظام والتنظيم ويُعتمد عليهم فى النواحى السياسية . وبعض هولاء الجنود يرتدى الزى الرسمى والبعض الآخر لا يرتديه . ومما يؤكد هذا الاشراف أن كلتا الوزارتين المختصتين بدعم الأمن الداخلى يرأسهما شخصيات أقل من بيريا وعملت معه سنين فى اختصاصات تابعة له .

وقد عمل بيريا أيضا كأحد أعوان ستالين الأقربين لسنوات عديدة . وولاؤه لرئيسه لاشك فيه . ومن الناحية الأخرى وضع ستالين ثقته الكاملة فى بيريا فى مناسبات عديدة مما جعل مركز بيريا فى الدائرة الداخلية للحزب قويا لا يُشَك فيه . ويشاع عنه أنه عُهِدت إليه مسئوليه جميع الأبحاث الذرية والتقدم فيها .

واستقرار النظام السوفيتى يعتمد إلى حد كبير على الجهاز البوليسى الكفء القوى، و بيريا يثبت دائما قوته بمكافحته لأية مشكلة تتعلق بأمن الدولة . و يمثل هؤلاء الثلاثة بالترتيب : مولوتوف ـ مالنيكوف ـ بيريا ، السياسة الخارجية ، والتوجيه العام للأداة الحكومية وسياسة الحزب وتنظيمه ، والأمن الداخلى .

و يُحتمل أن يصبح مالينكوف ـ رجل الحزب ـ المسئول أيضا عن الاشراف العام على الاقتصاد السوفيتى . . المجال الذى له فيه خبرة . أو يحتمل أن يكون قد ورث منذ وفاة منافسه زادانوف ، كل مهمة التوجيه المذهبى لسياسة الحزب تحت إشراف ستالين . وهى مهمة هامة .

وثمة عضوان آخران فى المكتب السياسى ، يقاربان الثلاثة الكبار السابقين فى نفوذهما ، فهما وثيقا الصلة فى عملهما بستالين ، ولهما أيضا مسئوليات ضخمة . هذان العضوان هما بولجانين وكاجانوفتش .

و بولجانين هو الآن عضو المكتب السياسى المنوط به شئون الدفاع الوطنى . وهو فى نحو الرابعة والخمسين ، وكان طيارا فى الحرب الأهلية .

وكان أصلا عاملا فى مصنع وتدرج إلى أن أصبح إداريا ومنفذا قديرا وخطيبا ألمعيا . وهو واسع التجربة، فكان مثلا رئيس بنك الدولة، وكان عمدة موسكو ، وكان لفتنانت جنرال فى العمليات الحربية فى جبهة الأورال ، وأصبح بعد ذلك وزيرا للقوات المسلحة .

وقد قابلت بولجانين مصادفة فى إحدى الحفلات حيث كان لطيفا ومجاملا للغاية ، ومنظره جذاب وجميل جدا فى زيه الجديد كمارشال للاتحاد السوفيتى . وله لحية صغيرة

وهو فى ذلك الوحيد من أعضاء المكتب السياسى . و يشهد الأجانب القليلون الذين تعاملوا معه بأنه معقول وذكى وقدير .

وعندما استقال ستالين من منصب وزير الدفاع وعهد به إلى بولجانين ارتفع مركزه كثيرا ثم دُعم أكثر عندما رُقى إلى مرتبة مارشال . وقد قرأت أن اختياره وزيرا للقوات المسلحة كان دلالة على أن الاتحاد السوفييتى أقل عدوانية ، بالمعنى العسكرى ، مما يعتقده بعض الأجانب ، ذلك لأن بولجانين منفذ و إدارى أكثر منه جنديا محترفا . ولست أظن أن هذا الذى قرأته صحيح . فستالين من غير شك يرى فى نفسه الخبير الأول فى الاتحاد السوفيتى فى الاستراتيجية . وهو ، كما يدل على ذلك لقب المارشال الذى يحمله ، القائد الأعلى للقوات الروسية المسلحة .

أما كاجانوفيتش « القوميسيير الحديدى » وقناص متاعب ستالين ، فهو لايزال صغيرا وأمامه الفرصة ليكون ذامستقبل هام . ويُشار إليه على أنه اليهودى الوحيد فى المكتب السياسى . ولكن يحتمل ألا يكون هذا صحيحا إذ أنه يشاع أن بيريا أيضا يهودى بالرغم من عدم تأكيد هذه الاشاعة .

و يعتبر كاجانوفيتش أكفأ إدارى فى الاتحاد السوفيتى . ولقد نقل من مكان إلى مكان حيثما كانت الحاجة إلى مقدرة تنفيذية ، وقد حقق دائما نتائج بارزة . وهو مثال آخر بارز على مقدرة البولشفيين على اختيار الكفاءة والنبوغ . فقد بدأ كاجانوفتش حياته كصانع أحذية فى أوكرانيا ، وكان عند انضمامه إلى الحزب الشيوعى عام ١٩١١ لايزال صانع أحذية . و بعد سبعة أعوام من هذا الانضمام كان يلعب دورا كبيرا فى تنظيم الجيش الأحمر ، وهو الذى أشرف على بناء نفق موسكو الذى يعتبر أجمل نفق فى العالم رغم أنه لايزال على عدم اتساعه .

ولم أتحدث أبدا مع كاجانوفتش . وهولا يظهو كثيرا فى الاجتماعات العامة أو الحفلات الاجتماعية ولـكن الروسيين وصفوه لى بأنه قوى وذو عزيمة وقدير .

* * *

وهؤلاء الحكام الروس متحدون فى الغرض وموالون لستالين ، وهذه الخلافات الداخلية التى قامت بينهم ليست إلا خلافات شخصية ليس لها أى أثر على وحـدة الحزب أو الولاء لستالين ، ولن يـكون لها طالمـا كان ستالين على قيد الحياة وظل محتفظا بالقياة العامة للسياسة الروسية، فلسلطانه الضخم ومركزه ونظام الحزب الدقيق، كل ذلك سيضمن عمل أعوانه معا فى تناسق تحت إرشاد المستشارين الذين يعملون فى الدائرة الداخلية للحزب والذين أشرت إلى أسمائهم

فالى هذه الدائرة الداخلية ينظر ستالين عندما يتذكر الأزمات التى اجتازها الحزب بعد موت لينين ، والصراع من أجل السلطان الذى خرج هو منه منتصرا بثمن ضخم تحمله الاتحاد السوفيتى ،وعندما يرسم خططه للحيلولة دون تكرار مثل هذه الأزمات. ولا شك أن ستالين لم يفته أن العالم الخارجى منذ أذيعت الشائعات عن تدهور حالته الصحية ، قد بدأ (أى العالم الخارجى) يتكهن عما يمكن أن تصير إليه الأمور عندما يصبح ستالين عاجزا عن الامساك بزمام الحـكم . وليس بعيدا أن ستالين لم يتخذ من التدابير ما يحول دون وقوع أزمة سياسية جديدة ونشوب كفاح جديد من أجـل السلطان .

والمسألة الآن هى هل تنجح هذه التدابير ؟ والواقع أن ستالين ، كما كان الحال فى عهد لينين ، يقف فوق مستوى معاصريه جميعا بحيث يصبح من المستحيل عقد مقارنة بينه و بينهم . ولـكن الحال لم تـكن دائما كذلك . فعندنا تسلم لينين ذروة

السلطان كان مساويا لبعض معاصريه كستالين وتروتسكى . على أن فوز ستالين بمكان لينين قد جاء نتيجة لصراع طويل دام عدة سنوات وكلف الدولة عديدا من الارواح ، وفرض على نظام الاتحاد السوفيتى فروضا ثقيلة لا يمكن احتمالها . وانتقال السلطان من لينين إلى ستالين هو الحادث الأول من نوعه فى الاتحاد السوفيتى . فهل ياترى ستتكرر هذه الحوادث العنيفة التى صاحبت انتقال السلطان من لينين إلى ستالين ؟ أم ستكون فترة الانتقال التالية هادئة لا تثار فيها معقبات دامية ؟ وفى الحق لقد كان جهاد ستالين وصراعه من أجل الفوز بالسطان محصورا فى داخل الحزب نفسه ، ولقد فاز به بالاسلوب السهل المباشر وهو سحق المعارضة .

ويحسن الأمريكيون صنعا لو يتمعنون هذه الحقيقة « فاز به بالاسلوب السهل المباشر وهو سحق المعارضة » . فبالنسبة لنا نحن الذين تعودنا أن نتقبل نتيجة انتخابات نوفمبر كل أربع سنوات للرئاسة دون أقل تردد رغما عن الاتهامات البغيضة التى يتبادلها المتنافسون من فوق منصات الخطابة ، يكون من الصعب علينا أن ندرك الفحوى الكامل لهذه العبارة .

فكيف فعلها ستالين ؟

لقد بدأ منذ كان سكرتيرا عاما للحزب فى التقاط أصدقائه وأعدائه الذين يمكن أن يساعدوه أو يعيقوه فى جهوده لأخذ مكانة لينين . فكان يدعم سلطة أصدقائه ومركزهم بينما كان يبعد أعداءه ويعزلهم حتى أصبح فى النهاية مستعدا للمعركة الفاصلة مع تروتسكى بأن كان يقصى زملاءه الأكثر ذكاء إلى منطقة « ألما أنا » النائية أولا ثم إلى النرويج وأخيرا إلى المكسيك حيث قتل تروتسكى بوحشية وشراسة .

وهكذا بعث بجميع أعوان تروتسكى إلى المنفى أو السجن . ولكن بقيت الأزمة

السياسة عميقة . فعمد إلى التاريخ يعيد كتابتها حيث حقّر دور تروتسكى فى الثورة وفى السنوات الأولى التى اعقبت الحرب بينما فخم دوره هو وعظمه . ورغم كل ذلك فقد وجد ستالين أن السير لا يزال صعبا وأنه لا بد من توجيه الاتهام إلى تروتسكى و بعض من عمالقة الثورة بخيانتهم روسيا وذلك بالتآمر مع عملاء جهات أجنبية ، و بلغ هـذا الاتهام ذروته بالتطهيرات الدموية التى حدثت اعقاب عام سنة ١٩٣٠ حيث واجه المئات اطلاق الرصاص الجماعى وحيث أرسل عشرات الألوف إلى معسكرات السخرة الاجبارية ، و باتمام ذلك لم يبق أحد يجرؤ على تحدى سلطان ستالين .

وعندما يختفى ستالين من المسرح السياسى ، قد تجىء الفرصة لواحد أو أكثر من الزعماء الطامحين داخل الحزب لمحاولة توسيع سلطانهم بنفس الوسائل . فالدكتاتورية تنظم هكذا عادة حول شخصية الدكتاتور حتى إنه عند ما يموت يحدث فراغ ،وطبيعى جداأن تنطلق قوى عنف لا يمكن التنبؤ بمداها .

والاحساس قوى جدا فى دوائر كثيرة خارج الاتحاد السوفيتى بأن الصراع الذى حدث بين تروتسكى وستالين لامحالة سوف يعيد نفسه بعد موت ستالين . ولقد بلغ هـذا الاحساس عند هـذه الدوائر القوة التى جعلته يؤثر بشدة فى بعض السياسات الوطنية الخارجية . غير أنه يجب أن نتذكر أنه قرب نهاية الحرب الاخيرة اعتقد معظم المراقبين أنه سيكون مستحيلا على الحزب الشيوعى أن يستعيد الاشراف الكامل على الجيش الذى أصبح قواده المنتصرون أنصاف آلهة بحق عند الشعب الروسى . ولم يكن ثمة مفر من ظهور بعض التغييرات الهامة . كذلك أعطى حزبه امتيازات كبيرة للشعب الروسى خلال سنوات الحرب و بدا الشعب الذى انهكته الحرب فى حالة

لا تدل أبدا على أنه مستعد للتخلى عن هذه الامتيازات . ولـكن شيئا من هذا كله لم يحدث وظل الحزب محتفظا بسيادته دون أدنى صعوبة فيما يبدو . واختفى من مسرح موسـكو القواد العسكريون الـكبار أمثال زوكوف الذى كان متوقعا أن تصطدم آراؤه فى التعاون مع الغرب بسياسة مولوتوف . ونُقل هؤلاء القواد بكل هدوء إلى وظائف خاملة الذكر نسبيا دون أن يشعر بذلك أو يلاحظه أحد ثم احتفل رسميا ببدء سلسلة جديدة من مشروعات السنوات الخمس ومشروع فعال لاصلاح قيمة العملة وتدعيمها ، واسترد الحزب الامتيازات التى سبق أن اضطر إلى منحها للشعب خلال سنوات الحرب الشديدة . ولم يحدث فى القيادة والنظام الشيوعى وتـكوينه تغيرات بارزة . فقد اختفى عدد من الأشخاص المهمين ، كما ظهرت شخصيات جديدة، ولـكن نواة الحزب القوية التى توجه مقادير الشعب الروسى ظلت فى الأساس كما هى . ومع ذلك فـكل هذا قد تم تحت قيادة ستالين القوية . أما موضوع إعادة توزيع القوى فى حالة وفاته أو عجزه ، وهل يمكن إتمام ذلك بنفس هذه السهولة .. فهذا ما نتركه للزمن وحده ليجيب عنه .

ومن الخطورة المحققة أن نتنبأ لمدى طويل عن مستقبل منظمة لا يعرف عنها إلا القليل جدا مثل المـكتب السياسى . ولـكن شيئا واحدا يمكن أن نؤكده ، هو أنه طالما بقى ستالين حيا فسوف يستمر فى المحافظة على السلطة العليا فى يده ، ومن ثم فسوف لا يخول شخصا واحـدا ـ أيا كان ـ قدرا كبيرا من السلطان . وهو الآن يقسم السلطات التى ركزها فى يديه خـلال الحرب بين هؤلاء الأعوان الملتصقين به والذين قد اختبر ولاءهم الشخصى له اختبارا تاما . والذين يبدو أنهم يشاطرونه الآن القسم الأكبر من سلطانه المفوض هم مولوتوف ومالنكوف وبريا .

ومما لايتصوره العقل أن يستطيع واحد بمفرده من هؤلاء الثلاثة أن يأخذ مكانة ستالين . فخلال سنوات الحرب ازداد سلطانه وطغت شخصيته على شخصيات جميع أعوانه التى صغرت وتضاءلت بجانب شخصيته . وأصبح وشاحه الآن أوسع من أن يستطيع واحد من هؤلاء ارتداءه . واعتقادى الخاص هو أنه عندما يموت ستالين ، فسوف يقسم سلطانه بين هؤلاء الثلاثة أو ربما أشركوا معهم الاثنين الآخرين اللذين يليانهم فى المنزلة وهما كاجانوفتش و بولجانين . ومن غير المستطاع الآن الإجابة عما إذا كانت الخلافات الشخصية والمطامح التى كبتت لوجود ستالين سوف تبرز واضحة وتعكر العلاقات التعاونية ـ بين هؤلاء الأعوان أم لا . فبالرغم من أنه صحيح أن النظام السوفييتى كالدكتاتوريات الأخرى ، مرتبط بشخصية قائده ؛ إلا أنه لكونه قائما فى الأساس على الدكتاتورية عن طريق لجنة ، فإن ذلك الارتباط أقل فى الاتحاد السوفيتى منه فى أى مكان آخر . ومع ذلك فإنى أعتقد أن واحدا أو أكثر من هؤلاء ، بل ربما أن زعيما جديدا لايزال اسمه غير معروف ،سوف يغريه الموقف على القيام بمغامرة للحصول على السلطة العليا .

ولكنى اعتقد أيضا أنه ليس مرجحا أن يحدث صراع يعادل هذا الذى وقع بين عمالقة الثورة بعد موت لينين، فيجب أن نذكر أن هذا الصراع السابق وقع عندما كان الاتحاد السوفييتى أقل قوة بكثير مما هو الآن ، والحزب الشيوعى أقل تحصينا بكثير مما هو الآن ، وعقب تجربة ناجحة فى حرب عظمى . ثم إن الجهاز نفسه ولو أنه اهتز وقتئذ اهتزازا خطيرا إلا أنه لم يضار ضررا بليغا . وفى حاضره القوى الآن قد لا تسبب ثورة تقوم فى القصور أكثر من تموج خفيف على سطح

الحياة السياسية ، ولن يكون لها أثرها عند الشعب الروسى الذى تعود التطهيرات السياسية . و بعض من الشعوب الأخرى قد حكمته فى الماضى اقليات ، ورغما من أن ثورات القصور المتتالية من أجل الحكم « فى هـذا البعض » قد اضعفت كيانه السياسى تدريجيا ،إلا أن الشعب الروسى قد أظهر جلدا على احتمال مثل هذه الثورات أجيالا بل قروناً . لذلك فاعتقادى أنه يجب أن نقبل المكتب السياسى لعدة سنوات قادمة كقوة لها حسابها .

obeikandl.com

الفصل الخامس

الأجانب فى موسكو

« إن مركز الديبلوماسى هنا فى موسكو أبعد ما يكون عن البشاشة والاغتباط . فالفكرة السائدة هنا أن جميع المراسلات وعلى الأخص ذات الصيغة العامة لاحصانة لها فى مكاتب البريد فهى تفتح وتفتش عادة . ومن ثم فان المفوضيات التى تستطيع تحمل النفقات ، تنظم نقل حقائب بريدها الخاصة بالطرق الديبلوماسية ولا تلجأ إلى البريد أبدا . وكذلك يسود الاعتقاد هنا بأن الوزراء المفوضين خاضعون لحلقة من الجاسوسية على أعمالهم وأن الخدم يُحْمَلون على إفشاء أسرار حياة الوزراء الخاصة فى منازلهم ومحادثاتهم واجتماعاتهم .. وليس عندى دليل مادى على هذه الاتهامات ، ولكنى أعتقد أن لهذه الاتهامات ما ترتكز عليه . ومجرد التفكير فى هذه الأوضاع المقلقة يثير حنق الإنسان وضيقه . فاذا كنت لم أكتب بانتظام ودائما كما كان متوقعا منى ، فهذا الذى قلت يقوم عذرا عن هذا الصنيع . وإذا كنت لم أبعث بمداد يثير الاهتمام البالغ ، فذلك يعزى جزئيا على الأقل إلى صعوبة الحصول على المعلومات الصحيحة . فالحكومة لا تبدى أى تسامح أو مجاملة فى هذه الناحية ولا أعتقد أن لى شكوى خاصة من هذه المعاملة اللهم إلا الشكوى العامة من المضايقات التى تلاقيها المفوضيات جميعها بصفة عامة . والسرية والالغاز هما طابع كل شىء هنا .. ولا يسمح بنشر شىء يستحق الاهتمام . وقلما نجد اثنين يتفقان فى تقدير

قوة الجيش أو البحرية أو الدين العام أو الدخل السنوى .. وفى رأيى أن الحكومة غير راغبة فى أن تعرف حقائق هذه الأشياء »

من رسالة لوزير أمريكا المفوض فى روسيا
مستر نيل براون مؤرخة من بطرسبرج فى ٢٨ يناير سنة ١٨٥٢

* * *

إن الفكرة العامة عندالشعب من أن السفراء يحيون حياة الترف والدعة ويحتفظون بنشاطهم وطاقتهم لمعالجة مهام السياسة العليا التى تتطلب كفاية رجال السياسة ، ليست مشتقة قطعا من حياة السفراء فى موسكو .

فقد وجدت أن الديبلوماسية العليا فن يركن إليه أحيانا فقط وأن النظام القائم حدد زياراتى للرجال الرسميين فى روسيا بثلاث أو أربع مرات فى الشهر . وأن هذه الزيارات لم تكن لبحث المسائل الدقيقة الخاصة بتحقيق السلام وتسوية المشاكل القائمة ، وإنما كان يصرف معظمها فى مسائل أخرى من مستوى التأكد من اعتراف الحكومة الروسية بجنسية بعض المواطنين الأمريكيين المقيمين داخل الاتحاد السوفيتى .

وكان معظم وقتى يصرف فى الشئون الإدارية . وكانت مشاكل الإقامة معقدة جدا . وكان موظفو السفارة يتألفون من خمسة وعشرين أو ثلاثين من رجال وزارة الخارجية والملحقين وخمسة وثلاثين أو أربعين من الكتبة . وكانت زوجات الموظفين حوالى نصف هذا العدد . وكان لدينا حوالى خمسة عشر من ضباط الجيش والبحرية والطيران فى مكتب الملحقين وحوالى خمسة وعشرين جنديا يقوم معظمهم بعمليات نقل البريد الخاصة بالسفارة . وكانت معظم الأعمال الكتابية فى القنصليات والأقسام الإدارية يقوم عليها موظفون من السوفيت . وهؤلاء كانوا حوالى مائة إذا أضفنا إليهم السائقين ورجال الحريق وغيرهم .

وقد تبين لى أنى ورثت مجموعة طيبة من الموظفين . ولكن ورثت فى الوقت نفسه عبئا ثقيلا فى إدارة هذه المؤسسة التى كانت تعانى نقصا ذريعا

وكان أكبر موظفى السفارة الديبلوماسيين مستر جورج كينان الوزير المفوض والذى كان قائما بالأعمال فى الفترة مابين تخلى إفريل هاريمان ووصولى إلى موسكو . وقد كان دليلى ومستشارى خلال الأشهر الأولى من إقامتى فى موسكو . وهو ديبلوماسى واسع التجربة متخصص جد التخصص فى شئون روسيا . وكان أول عضو فى البعثة الديبلوماسية الأمريكية التى صاحبت السفير بوليت إلى موسكو على أثر تبادل العلاقات الديبلوماسية بيننا و بين موسكو عام ١٩٣٣ . وهو يتحدث الروسية بطلاقة ، وثقافته الروسية أعمق من كثيرين من الروس أنفسهم . ولاشك أن معرفته المباشرة بتفاصيل العلاقات الأمريكية الروسية التى باشرها بنفسه وتعمقه فى تاريخ السوفيت السياسى ومذاهبهم الاجتماعية والسياسية قد جعلا منه خير رائد ممكن لرئيس بعثة ديبلوماسية وصل حديثا إلى موسكو . وقد كان هو وزوجته الجذابة صديقين لهما قيمتهما فى حياتنا ..

وكان فردريك رينهاردت هو الشخص الوحيد فى هذه المجموعة الذى عرفته من قبل ، إذ كان يعمل معاونا لمستشارنا السياسى خلال الحرب مستر روبرت مرفى فى القيادة العليا لقوات الحلفاء فى أوربا . وقد كنت سعيدا بلقائه مرة ثانية فى موسكو . وهو من المتخصصين فى شئون روسيا ، وله تجربة واسعة وماض مجيد فى العمل ، كما أنه يتميز بقدرة فائقة وجاذبية شخصية محببة . وقد كان يسكن هو وسكرتيرتى الخاصة مس بريجز معنا فى قصر سبازو . وقد أصبحت بريجز الآن نائبة قنصل فى سفارتنا ببلغراد . وقد عملت معى خلال الحرب فى هيئة السكرتارية وكانت «ضابطا» برتبة ميجور فى

الفيلق النسائى وهى واحدة من خمس ضابطات من هذه الفرقة اخترن للعمل فيما وراء البحار . وقد كنت كجندى محترف أنظر بعين صفراء إلى استخدام النساء فى نواحى النشاط الحيوى اللهم إلا فى حقل التمريض فى الجيش . ومن ثم فحين طلب إلى الجنرال إيزنهاور أن أضع شروطا يجب أن تتوفر فيمن يخترن منهن لشغل وظائف السكرتارية وذلك أثناء زيارة عاجلة للولايات المتحدة حينئذ ، وضعت شروطا تتطلب مستوى عاليا رفيعا جدا من الكفاية . وعلى الرغم من ذلك فإن الكولونيل هوبى رئيس الفيلق النسائى استطاع أن يخرج عددا من هؤلاء الضابطات تتوفر فيهن كل شروط اللياقة المطلوبة . وكانت بريجز واحدة من خمسة أرسلن إلى شمال إفريقيا فى سفينة حربية تعرضت لطوربيد أطلقته عليها غواصة ألمانية خارج ميناء وهران . ولما كنت قد وعدت مسز روزفلت أن أحيط هذه الدفعة الأولى من المجندات بعناية خاصة ، فقد سافرت إلى وهران لرؤيتهن على أثر انقاذهن من حادث الطوربيد . وكانت المركب التى تقلهن قد غرقت فى الساعة الثانية صباحا وفقدن فيها كل ملابسهن وأمتعتهن وظللن فى قوارب مكشوفة فى البحر حوالى اثنتى عشرة ساعة وكن جميعا فى حالة من الوهن والشحوب لايمكن تصورها .

وقد رأست بريجز مكتب السكرتارية فى مؤتمرى الدار البيضاء وطهران وتجلت فيهما كفايتها بدرجة لفتت أنظار مستر بيرنز وزير الخارجية فعيّنها إثر انتهاء الحرب فى وظيفة بالخارجية الأمريكية ثم تفضل وسمح لى باختيارها لمرافقتى إلى موسكو . والحق أن طاقتها الفائقة فى العمل قد يسرت سير الأمور فى مكتبى بدقة وبساطة متناهيتين ووفرت لى هدوء البال فى العمل مدة خدمتى فى موسكو .

وكان يقوم بأعمالى الخاصة السرجنت جرينر سائق العسكرى والسرجنت

السابق فى المدفعية البولندية ميريون بلاز يشيك الذى التحق بخدمتى خلال الحرب بعد إطلاق سراحه من معتقل بوختنالد الذى قضى فيه أربع سنوات ونصف . وقد عهدت إلى جرينر بأعمال قوميسير السفارة بدلا من قيادة السيارة . وكان بلاز يشيك يقوم بوظيفة رئيس الخدم وأعمال المخازن فى قصر سبازو . وقد كفانى كثيرا من المتاعب ووفر لى كثيرا من النفقات بفضل معرفته للغة الروسية واحاطته بطبائع الروس. وممن أقاموا معنا أيضا الكابتن رونالد ألن من البحرية الأمريكية وهو متحدث طلق اللسان عمل فى روسيا عدة سنوات و كانت شخصيته محبوبة منا جميعا . و إذا كانت كل محاولاتى لحمله على الظهور بالمظهر العسكرى فى زيه قد باءت بالفشل إلا أن عزائى الوحيد هو أن جميع ضباط البحرية العظام بما فيهم الأميرال ستانلى قد حاولوا جميعا نفس الشىء من قبل ولم يوفقوا . وحين ترك آلن مكانه فى السفارة حل محله فى الفوز بمحبة الأسرة ريتشارد ديفيز أحد الشبان الأكفاء من جماعة الضباط العاملين المتخصصين فى الشئون الروسية . وقد كان فى موسكو حين وصلنا ، ولكنه بعد أن أتم رحلته عاد إلى الولايات المتحدة ليقضى سنتين فى الخدمة ثم بعد انتهائهما انضم إلينا فى موسكو وعمل معى فترة من الزمن قبل مغادرتى السفارة .

و يأتى جون ديفيز فى المرتبة التالية لكينان الوزير المفوض، وهو من المتخصصين فى شئون الشرق الأقصى ومن مواليد الصين حيث اشتغل هناك مدة طويلة ،ومن ثم كان وجوده معنا عظيم القيمة جدا لاستطاعته أن يفسر لنا الاتجاهات الحديثة والحوادث التى تقع فى هذه المنطقة . وقد كشفت فيه عن ولاء وقدرة على العمل وسرعة فى اصدار الأحكام الصحيحة على كل مايعهد إليه بحثه . وكانت زوجته الجميلة الموهوبة تعمل معنا فى السفارة كما كان يعمل كل زوجات موظفى السفارة .

ومسز ديفيز فضلا عن ذلك ابنة سفير ووكيل سابق لوزارة الخارجية . ولولا معاونة زوجات موظفى السفارة لنا فى العمل لأصبح مستحيلا علينا إنجاز أعمال السفارة ، فقد وفرن علينا بتعاونهن فى العمل جاب عدد أكثر من الكتبة مع أن مواد التموين التى كانت تسمح بها الحكومة السوفيتية للسفارة لم تكن كافية لسد حاجات موظفى السفارة الضرورية .

هؤلاء الموظفون وغيرهم ممن لم أذكر أسماءهم . ولكنهم من المنزلة فى قلوبنا مثل الأولين .. كانوا مجموعة صغيرة كلها ولاء ووفاء وقد أدى كل منهم من العمل فوق ما يحق لنا أن نتوقعه منه . وحين غادر هؤلاء السفارة عائدين إلى الولايات المتحدة أو إلى مهمات أخرى فى الخارج خلفهم آخرون اختيروا بعناية وكانوا لا يقلون عنهم كفاية وولاء .

وفى الاتحاد السوفييتى حيث المفروض أن جميع النساء والرجال متساوون فى الحقوق وأن جميع الفروق المزعومة قد قضت عليها الثورة الشيوعية .. فى هذا البلد بالذات كانت الجهود تبذل لادخال نظام الطبقات فى السفارة الأمريكية و بين أفراد أسرة سميث .

وقد نشأت المشكلة بسبب بيض الافطار الذى يعتبر على الأقل أمرا جوهريا هاما . ففى انديانا حيث نشأت لا يعتبر الافطار وجبة خفيفة بل فى الواقع هو وجبة رئيسية تتكون عادة من بيضتين وقطعة كبيرة من لحم الخنزير أو بعض الشرائح، ولذلك كانت زوجتى تهتم بهذه الوجبة وتعتبرها رئيسية بالنسبة لها أيضا .

وحين وصلنا إلى موسكو كان الطعام يوزع بالبطاقات . ولكونى سفيرا ، وليس لأنى أكثر أسرتى جوعا ، حددت السلطات السوفيتية حصتى من البيض بخمس

عشرة بيضة فى الشهر أى بواقع نصف بيضة فى اليوم . أما مسز سميث فلم يكن لها نفس المركز ، ومن ثم تقرر لها عشر بيضات فى الشهر أى بواقع ثلث بيضة فى اليوم ، وتقرر لباقى أسرتى عدد يتفاوت ، وصل حده الأدنى إلى خمس بيضات فى الشهر .

ولم تكن هذه التقديرات كافية بحال ما ، ولكنها ما حددته الحكومة الروسية لمشترياتنا بالسعر المحدد من المخزن الخاص بالأجانب .

وكان من الممكن بالطبع أن نلجأ إلى السوق الحرة حيث تتقرر الأسعار طبقا لقانون التضخم لقلة المعروض وكثرة المطلوب حتى كانت البيضة الواحدة تباع بما بين ثلاثين وأربعين سنتا على أساس قيمة الروبل المفروضة والتى بمقتضاها كان الدولار يساوى اثنتى عشر روبل (وخفض فيما بعد إلى ثمانية روبلات) . وكان سعر البيض يتوقف أيضا على الموسم الذى يباع فيه وعلى نوع البيض نفسه الذى كانت توجد منه أنواع متفاوتة الاختلاف . وكان السعر وحده كفيلا بألا يشجعنا على شرائه عن هذا الطريق فضلا عما فى الشراء من مغامرات من حيث عدم توفر الجودة أو الصلاحية .

وقد حدث فى الأسابيع الأولى من إقامتنا بموسكو وأثناء عمليات التنظيف لحديقة قصر «سبازو» أن عثرنا على بيت قديم للدجاج غير مستعمل وعلى حظيرة صغيرة محاطة بالأسلاك الشائكة . وقد أوحى إلينا هذا الكشف بحل معقول وهو شراء بعض الدجاج ليمدنا بما يلزمنا من البيض .

وكان هذا أمرا سهل القول ولكنه ليس سهل التنفيذ . ففى بلد شيوعى ، حيث كل الانتاج ملك للشعب ولكنه خاضع لرقابة الدولة ، لا تستطيع لمجرد الرغبة فى شىء أن تمتطى سيارتك وتسارع إلى إحدى المزارع حيث حظائر الدجاج لتشترى ما تحتاج إليه

من الفراريج ؛ بل ينبغى أن تتم كل هذه المعاملات عن طريق الحكومة و بالوسائل البيروقراطية المتناهية فى البطء .

وكانت الخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف توسيط أحد الموظفين الذين يعملون فى السفارة ليقوم بالاجراءات التمهيدية . وقد ذهب هذا المبعوث إلى وكالة حكومية تعرف باسم « بورو بين » وهى اختصار لما معناه إدارة الخدمات للهيئات الديبلوماسية. و بورو بين مسئولة نظريا على الأقل عن كل مطالب الأجانب فى موسكو ، ويجب أن تستشار فى كل خطوة . فأنت مثلا لا تستطيع أن تدعو السباك لاصلاح حنفيات الحمام إذا عطلت أو النجار لاصلاح عطب فى السقف .. لا تستطيع أن تدعو هذا أو ذاك مباشرة بل لابد من أن تفعل ذلك عن طريق هذه الوكالة . و« بورو بين»منظمة كبيرة جدا و يحوطها الشك .

وقد ذهب مبعوثنا إلى « بورو بين » وأعلن بكافة الطرق الرسمية أن السفير الأمريكى جوعان ولا يجد مايسد جوعه إلا البيض، وأنه حريص على أن يسود السلام أسرته بالامتناع عن توزيع ما يعطى لهم من البيض توزيعا غير عادل ، وأنه لذلك فى حاجة إلى شراء بعض الفراريج (الكتاكيت) والاحتفاظ بها فى حظيرة للدجاج داخل السفارة لتنتج بيضا أكثر يسد حاجة المائدة فى قصر «سبازو» . وقد قال ذلك ليضمن اقتناعهم بأن الأمر عاجل جدا .

وأظهرت « بورو بين » عطفا و إدراكا للموقف ، ولكن بالطبيعة لم يكن فى استطاعتها أن تفعل شيئا من تلقاء نفسها ، فهى لم تزد على أن تكون وسيطا . ومن ثم حولت الطلب إلى أحد فروع وزارة الزراعة وهو القسم المختص بتحسين إنتاج الدواجن .

ومرت الأيام واستمر النقص فى البيض ، وباتت أسرة سميث تتساءل فى عجب عن متى يتاح لها التمتع بافطار أمريكى شهى مرة أخرى . وظل مبعوثنا يحث « بورو بين » ويستعجل استجابة الطلب و « بورو بين » بدورها تستعجل وزارة الزراعة .. وأخيرا جاء الرد بأن طلبنا أجيب وحدد لنا يوم معين نذهب فيه إلى وزارة الزراعة لمقابلة أحد موظفيها الذى سيصحبنا إلى أحد مزارع الدجاج خارج موسكو . ولما كانت الترتيبات قد أخذت دورها الرسمى وأصبح نفوذ وسمعة السفير الأمريكى فى المحك قررت بينى و بين نفسى أن أستمر فى الموضوع إلى النهاية .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر وصلنا إلى وزارة الزراعة تتبعنا السيارة السوداء التى تقل حراس السفارة من قبل الحكومة السوفييتية .

وكان الموظف السوفييتى المعين لمصاحبتنا فى الانتظار وقد ركب معى فى سيارتى. وكانت هناك سيارة أخرى تقل عددا آخر من الحراس. ولما كانت سيارتى مزدحمة بالركاب فقد أرسلت اثنين من حاشيتى للركوب فى سيارة الحرس الأمر الذى أدهشهم إذ لم يتعودوا أن ينقلوا أجانب فى سيارتهم ولكنهم مع ذلك قبلوها بروح الكرم الروسى ! .

وسرنا بالسيارات فى رحلة ممتعة ما يقرب من خمسة وعشرين ميلا خارج ياروسلافسكو ، ومررنا فى طريقنا بمزرعة للثعالب الفضية قد بدا عليها حسن الادارة والتنظيم .وأخيرا وصلنا إلى مزرعة تجريبية لتربية الدواجن وترجمة اسمها الروسى حرفيا « مصنع تحسين إنتاج الطيور » .

وفى المزرعة قابلنا المدير وعدد من رجاله وحيونا وطافوا بنا فى أنحاء المؤسسة بما فيها معمل التفريخ ومعمل التقريد وأمكنة وضع البيض . وكانت المزرعة تحوى دجاجا

من نوع ليجهورن و بليموث روكس ودجاج « رود ايلند » الأحمر وبعض الأصناف الأوربية التى لم أميزها إذ كانت سلالات ارستوقراطية ممتازة . وكان هناك قسم لتحسين إنتاج البط وآخر للديكة الرومية .

وقد قلت لمدير المزرعة بهذه المناسبة إن صديقا لى فى الولايات المتحدة قد انتج نوعا خاصا من الديكة الرومية البيضاء . وقد أظهر المدير اهتمامه بهذا النوع فوعدته بأن أتخذ الترتيبات اللازمة لتزويده ببعض بيض هذه الديكة . ونفذت وعدى له أخيرا ولكن هذا كلفنى مشقة احتضان البيض فى صدرى معظم الطريق من نيويورك إلى موسكو .

وحين انتهينا من جولتنا فى أقسام المزرعة دعانا المدير إلى بيته . وكان الوقت وقت تناول الوجبة الروسية الكبيرة (اوزهن) وهى ماتعادل وجبة العشاء . وكانت مائدة الطعام تضم دجاجا أعد على اشكال متعددة وشرائح من صدر ديك رومى و بيضا مقليا وآخر مسلوقا (مما كانت تحلب له أفواه أسرة سميث) و بعض الخضروات . وكانت هذه أكلة ريفية دسمة . وكان مع الطعام شمبانيا جاء بها موظف وزارة الزراعة الذى صاحبنا . وقد بدأنا قبل الطعام بتبادل أنخاب الفودكا و ببعض كلمات قصار أعربنا بها عن الصداقة والاعجاب المتبادلين .

وشربنا أثناء الطعام كأسا أو كأسين من الشمبانيا ، وكانت من الصنف الذى يقدمه الروس عادة للحفاوة لضيوفهم من الأجانب . وكانت الوليمة كلها غاية فى البساطة إذا قورنت بالمآدب الرسمية ذوات الألوان المتعددة . وبعد الأكل قادنا مدير المزرعة إلى حظائر الدجاج مرة أخرى قائلا إن الوقت قد حان لأنتقى ما أشاء من أنواع الكتاكيت ،فسألت من فورى عن أى الأنواع أكثر إنتاجا مستمرا للبيض .

وقد صمت المدير لحظة كأنما كان يفكر فى السؤال ، ثم قال إن الليجهورن الأبيض هو خير الأنواع فى انتاج البيض . وكان بالمزرعة نوعان من الليجهورن الأبيض ، أحدهما بريطانى والآخر أمريكى . وقد أشار فى حديثه إلى أن البريطانى خير من الأمريكى، ثم استدرك مسرعا ليتفادى حرج كبريائى القومى وقال إن هذا مرده إلى أن الصنف البريطانى قد عاش فى الاتحاد السوفيتى مدة أطول . وهذه العبارة الأخيرة إذا قدرت وحدها لكانت أكبر دليل على الحساسية الوطنية عند الروس . ولكنى أدركت على كل حال مايعنيه وهو أن الدجاج البريطانى يضع بيضا أكثر لأنه عاش طويلا فى روسيا ومن ثم تأقلم وخضع للظروف المحلية .

وقد أجبته ضاحكا إنى لن أسمح لكبريائى القومى أن تحول بينى فى أى لحظة و بين الحصول على أكبر عدد ممكن من البيض لسكان قصر سبازو . . ولذلك فانى أرغب فى شراء أربع وعشرين دجاجة من سلالة الليجهورن البريطانى الأبيض .

وأرسل الدجاج إلى قصر سبازو فى ساعة متأخرة من بعد ظهر اليوم نفسه فاجتمع سكان البيت جميعا حول الدجاج يحيون مقدمه .

وقد حذا رجال السلك السياسى كلهم حذوى و بالأخص السفير البريطانى سير موريس بيترسون الذى عنى بدجاجه عناية فائقة وأسكنه فى الشتاء داخل السفارة فى الدور الثانى . أما دجاجى المسكين فقد وضعته فى حجرة صغيرة غير مناسبة وسط الجراج . وكانت الحجرة تدفأ بمدفأة كهربائية واحدة فى هذا البرد القارس فى موسكو . ولكنها مع ذلك ترعرعت ونبت ريشها . ولم يكن دجاج سير موريس خيرا من دجاجى إنتاجا . . فقد حافظ دجاجى فى انتاجه على رقم ثابت تراوح بين الثمانى عشرة والعشرين بيضة فى اليوم لمدة سنتين تقريبا .. واستبدلنا به غيره بعد ذلك

وثمة مشكلة من مشاكل الطعام أكثر أهمية من تلك المشكلة ، واجهتها السفارة . . ذلك أنى كنت مسئولا مباشرة عن إطعام المقيمين فى السفارة وعددهم ثمانية وثلاثين علاوة على الخدم . . كما كنت مسئولا عن رعاية مصالح أكثر من ١٥٠ موظفا أمريكيا وسوفيتيا آخرين . ولم تكن هذه المسائل طيعة على الحل كالمشكلة الأولى .

وكان هناك نقص ذريع فى كل مادة هامة من مواد الطعام الغربى . وكانت الأسعار فاحشة جدا بسبب القيمة الجبرية والمبالغ فيها للروبل الروسى حتى بالنسبة للسعر الخاص بالدبلوماسيين . وحين كانت محلات الأطعمة (الجاستروفوم) تقوم بعملها كنا نتلقى مددا معقولا من البضائع المحددة بالبطاقات بسعر معقول منخفض (وهذه الأسعار على الأقل كانت تبدو معقولة حين تُقارن بالأسعار التى كانت تتقاضاها المحلات التجارية الخاضعة لإدارة الدولة والتى كانت تفتحها الدولة لتمتص فوائض القوة الشرائية للروبل التى كانت بيد الشعب الروسى ، أو إذا قورنت بالأسعار فى الاسواق الحرة حيث كان يُسمح للمزارعين والفلاحين ببيع المواد الزائدة على الحصة المقررة عليهم تسليمها للحكومة) .

ولكن عندما انتهى نظام البطاقات فى ديسمبر عام ١٩٤٧ أغلق المخزن الديبلوماسى ، وأصبح على الأجانب أن يشتروا طعامهم كما يشتريه الروس من مخازن الدولة أو من الاسواق الحرة .

والسيدات الامريكيات اللائى عاصرن قمة التضخم فى أمريكا بعد الحرب لم يستطعن أن يتخلصن من الصدمة التى أصبن بها عندما بدأن معاملتهن مع المحلات التجارية فى موسكو . وماتزال مسز سميث تذكر اليوم الذى انفقت فيه ٢٥ دولارا

شراء عشر بيضات وعشر أرطال من لحم الحساء من السوق الأوكرانى فى موسكو .

والأسعار التى تباع بها المواد الغذائية كانت بالطبع فوق ما تتحمله موارد الموظفين المعتمدة على المرتبات الحكومية حتى لوأضفنا إليها علاوة الغلاء التى كانت تمنحها الحكومة الأمريكية لموظفيها لمواجهة ارتفاع سعر تبادل النقد الأمريكى بالروبل الروسى الذى رفعت الحكومة الروسية قيمته .

لذلك نظمنا فى السفارة إدارة للامدادات على أساس تعاونى ساهم فى رأسمالها كل عضو من أعضاء السفارة بنسة مرتبه أو مرتبها . وطلبنا من أمريكا بعض السلع والأصناف المحفوظة فى العلب وكنا نبيعها لموظف السفارة بسعر الاستيراد مع إضافة مصاريف الادارة التى كانت تقتضينا دفع مصروفات عالية للنقل والتأمين مضافا إليها قيمة الخسائر . ولكن على الرغم من هذه الاضافات الباهظة إلى سعر المبيعات فى الولايات المتحدة أمكننا أن نمد رجال السفارة بطعام أرخص بكثير من سعر السوق الروسى وظللنا على هذه الحال مدة طويلة .

وقد أضيفت إلى هذه المواد المستوردة من أمريكا بعض المواد الغذائية من برلين . وكانت تحضرها لنا طائرة السفارة كلما ذهبت إلى قواعدها هناك . وقد تمتعنا بمزية أخرى هى أننا كنا نشترى ما يلزمنا فى برلين من إدارة إمدادات الجيش ، وظللنا على هذه الحال حتى قطع الحصار هذا المورد . وكانت شحنة الطائرة لنا تتكون عادة من ١٥٠ رطل من اللحم البقرى ، ١٠٠ رطل من الدجاج وأنواع مختلفة من اللحوم الباردة والبيض والموالح وكثير من مواد الغذاء الأمريكى التى لم يكن يمكن الحصول عليها من موسكو .

ولكن الحكومة السوفيتية لم تلبث أن فرضت قيودا ثقيلة على كميات الأطعمة

التى تستورد من الخارج معفاة من الضرائب . وذهبت جدوى كل مجادلاتنا معهم من أن هذا الوضع إنما هو عبء ثقيل يفرض على حفنة من الأجانب فى الاتحاد السفيتى الذين لا يؤثر ما يستوردونه من بضائع أى تأثير على الاقتصاد السوفيتى .. ذهبت كل هذه المجادلات وهذه الحجج أدراج الرياح واضطرت إدارة الامدادات أن تقلل من طلباتها وأن تنزل بها إلى الضرورات القصوى مما اضطر موظفينا إلى شراء المواد الغذائية بأسعار باهظة من الاسواق المحلية حتى يتمكنوا من الحصول على غذاء وبنزين .

ولن يستطيع الأمريكيون الذين يعيشون فى الولايات المتحدة حيث تتوفر مخازن الأدوية والاسواق الممتازة والأسواق الشعبية أن يتصوروا الظروف المعيشية التى كان يحيا فى ظلها الأجانب فى موسكو فى ظل اقتصاد يتميز بانعدام المواد العادية الضرورية لحياتهم اليومية التى يجدها الأمريكان أمرا ميسورا مسلما به .

وثمة مشكلة أخرى هى مشكلة السكن . وهذه كانت من مشاكلنا الرئيسية فقد ضقت ذرعا بمنظر مبنى السفارة الأمريكية فى موسكو خلال أيامى الأولى . فدار السفير التى تقع فى قصر سبازو المشهور والذى اشتق اسمه من اسم الميدان الذى يقع فيه وهو ميدان سبازو بسكوفسكايا والذى اشتق اسمه هو الآخر من اسم الكنيسة الصغيرة والتى أصبحت مخربة الآن وإن كانت فى وقتها مثلا من أمثلة العمارة الروسية الكنائسية !! ... هذه الدار لم تكن ملائمة للسكنى

فقصر سبازو بناه أحد التجار الروس الأثرياء وتم بناؤه قبل الثورة . ويسكن هذا قصر السفير الأمريكى منذ نشأت العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين فى عام ١٩٣٣ .

وقد وجدته مظهرا واضحا للازدحام والاهمال اللذين لا مناص منهما خلال سنوات

الحرب المليئة بالمشاغل، والتى كانت أمور الصيانة والاصلاح فى إبانها تكاد تكون مستحيلة

وقصر سبازو مكون من طابقين و به أبهاء متسعة عديمة الفائدة . و كثيرا مادار بذهنى أن المليونير الروسى الذى بناه قبل الثورة كان معنيا غاية العناية باعداد بهو كبير للاستقبال يمتد من الدور الأرضى إلى السطح وأنه بذل أكثر ماله فى الثريات الفخمة المصنوعة من الذهب والبللور المعلقة فى سقف حجرة الاستقبال والتى تزن طنا على الأقل . و بنى بما تبقى له من مال بعد ذلك الأجنحة الخاصة بالنوم والجلوس على أساس أنها مسائل إضافية . وفى الدور الأرضى علاوة على حجرة الاستقبال الرئيسية وصالة الرقص التى أضيفت فى عهد السفير بوليت ، توجد حجرات أخرى صغيرة للاستقبال وحجرة كبيرة للمائدة وأخرى صغيرة وقاعة للبلياردو ، وحجرة الخزين . و يوجد فى الطابق الثانى جناحان للنوم وعدة غرف صغيرة للنوم أيضا .

أما فى البدروم فتوجد المطابخ ومغسل حديث وقاعة طعام للخدم وحجرة للجلوس وأمكنة للخزين . وخلف البيت توجد الاصطبلات القديمة التى حولت إلى جراج يتسع لعربتين . وأضيفت إليه حجر خدم بنيت فوق الجراج كما بنيت قاعات أرضية لحفظ تموين الشتاء من البطاطس والكرنب .

ومن الواضح أن نظام المبانى فى عهد ماقبل الثورة لم يكن حسن الهندسة . فقد شاهدت كثيرا من التصدعات فى حوائط القصر الخارجية حين وصلت . وقد ظلت على حالها إلى أن غادرت موسكو على الرغم من الجهود المضنية التى بذلناها لاصلاحها . أما داخل القصر فكان مقبضا . وقد اضطر مستر هاريمان السفير الأمريكى أيام الحرب وتحت الزيادة الهائلة فى عدد البعثة الدبلوماسية والعسكرية فى موسكو إلى أن يحوّل مقر السفارة إلى معسكر للنوم ليأوى فيه كل هذا العدد ، وتراجع هو إلى حجرة

نومه حيث كان ينام ويؤدى عمله فى الوقت نفسه . وقد أثبت نظام التدفئة المركزية أنه غير كاف مما حمل على تزويد كل حجرة بموقد من الزيت المشتعل موضوع داخل صندوق كبير من الرمل، وعلقت أنابيب الموقد بأسلاك صدئة تنفذ من النوافذ . وقد وقعت معظم الزخارف الجميلة التى كانت تزين الحجرات والأبهاء وتمزقت الأستار الحريرية الثمينة التى كانت تغطى الجدران واتسخت وأصبحت مهلهلة كما اتسخت الأبسطة المفروشة على الأرض وامتلأت بالبقع وبعضها بلى كلية .

وكانت الثريا الضخمة المصنوعة من الذهب والبللور هى موضع فخار السفارة ، إذ كان سمك الذهب الذى يحليها يبلغ $\frac{١}{١٦}$ من البوصة ، وكانت بعض الحليات البلورية الثمينة يبلغ طولها قدما وزنتها ٢٥ رطلا للواحدة ولكن هذه التحفة كانت خطرا على حياة المقيمين فى السفارة لأن الأسلاك التى كانت تربط أجزاءها البلورية قد قاربت البلى حين وصلتُ إلى السفارة . وكان إصلاح هذه الأسلاك واستبدالها بغيرها لضمان سلامة السير فى قاعة الاستقبال الكبرى يتطلب ٨٠٠ دولار .

أما مقر عمل السفارة الرسمى ومكاتبها وهو المعروف فى موسكو باسم موخوفايا أخذا من اسم المكان الذى تقع فيه وهو موخوفايا يولتسا إلى الشمال من الميدان الأحمر وأمام كتدرائية القديس بازيل وقبر لينين . وهذا المبنى يتكون من سبعة طوابق مرتفعة . وقد بنته الحكومة السوفيتية فى الأصل ليكون مقرا للكتاب والفنانين . ولكنها أجرته للحكومة الأمريكية عام ١٩٣٣ .وهو الآن مكون من قسمين متصلين فى كل منهما مصعد يشتغل نصف الوقت فقط .

وعلاوة على مكاتب السفارة يوجد فى هذا المبنى سبع عشرة شقة صغيرة يشغلها

موظفو السفارة وأسرهم كما يشغلها السكرتيرات بالسفارة. أما القسم الثقافى وقسم الاستعلامات فيوجدان فى مبنى فى شارع فيزنيتا يولتا . وكان مؤجرا فى الأصل للصليب الأحمر الأمريكى وحلت محله السفارة فى الإيجار . ويقيم فى هذا المبنى أسرة أو أسرتان من رجالنا كما يقيم فيه البنات غير المتزوجات . ويقيم فى البدروم الذى يحوى عشر غرف عشر أسر روسية لا صلة لها بالسفارة . وهم يشتركون جميعا فى مطبخ واحد وحمام واحد .

أما الكتبة ورجال الحرس فى السفارة فيقيمون فى مبنى على هيئة معسكر يسمى البيت الأمريكى وهو على مسيرة ميل من مقر مكاتب السفارة .

وهذا المبنى المؤلف من طابقين يحتوى على عدد من الغرف الكبيرة والمتوسطة ، يشغل كلا منها رجل أو رجلان . وعلاوة على ذلك توجد فى هذا المبنى وسائل للترويح ، ففيه حجرة للسينما يمكن أن تعرض فيها الأفلام كما يوجد فيه مطعم كبير .

أما ما زاد على ذلك وهو دائما عدد كبير ، فيقيمون فى فندق ناسيونال الملاصق للسفارة وفى فندق سافوى ومترو بول القريبين منها . وهم يسكنون فى حجر موحشة قليلة الأثاث سيئة التدفئة ومعرضون دائما للتنقل من حجرة إلى أخرى لتعطى حجرهم لآخرين .

وكانت أول فكرة طرأت لى بعد أن استعرضت حالة هذه المجموعة من المبانى السيئة وغير الكافية هى أن الوقت قد حان لتجديد الاقتراح الخاص ببناء سفارة جديدة تضم مكاتب الموظفين ودارا للإقامة فى مكان واحد على أن يمدنا الروس بأدوات البناء والعمال وعلى أن تقوم الحكومة الأمريكية بمد الروس

بفوائض المواد الحربية الضخمة المخزونة فى أوربا والتى كانت تباع مقابل قدر بسيط من تكاليفها الأصلية .

وكنت أعرف بالطبع أن الروس قد أبدوا رغبتهم فى شراء كميات كبيرة من هذه المواد وأنهم قدموا كشفا بالأشياء التى يرغبون فى شرائها ، وتنحصر أساسيا فى العربات وأدوات بناء الطرق وغير ذلك من المواد المماثلة . وكانت الأشياء التى يطلبها الروس بالذات غير متوفرة . ولكن فور وصولى إلى موسكو ذهبت لزيارة مولوتوف لأبين له الحاجة الماسه إلى بناء سفارة جديدة على أن تمول بالمواد الفائضة من أنواع أخرى . ولم أكن أتوقع أى رد عاجل مُرْضٍ أو غير مُرْضٍ من وزير الخارجية السوفيتية . وفعلا لم أتلق منه أى رد بالايجاب أو الرفض . ولكنى مع ذلك قمت بعمل الترتيبات مع السلطات الأمريكية فى باريس ، المعهود إليها تصفية هذه المواد الفائضة والتى تبلغ قيمتها ما بين عشرة ملايين ، ١٢ مليون دولار ، ليمدونى بجدول بهذه المواد ليستطيع الروس أن يختاروا منها ما يريدون .

وحين أُعد هذا الكشف عدت لزيارة مولوتوف وكان بشوشا هذه المرة ، ولكنه لم يربط نفسه بشىء وقال لى أخيرا إن مثل هذه الشئون تقع فى دائرة اختصاص ميكويان وزير التجارة الخارجية إذ ذاك وقد حددت موعدا لمقابلته على الفور .

وقد استقبلنى ميكويان فى مكتبه واشترك معنا فى الحديث أعضاء وزارته و بعض كبار ضباط الجيش .وحين شرحت له المسألة قال لى ميكويان إنه لا يعرف شيئاعن المشروع المقترح لبناء السفارة الأمريكية . ولكنه وعد أن يبحث جداول الفوائض التى سلمتها له . وقد حاولت أن أقوم بدور ناجح كوسيط فى البيع فأشرت بحماس إلى مئات الأصناف التى كنت مُقدراً أنها ستكون ذات قيمة للاتحاد السوفيتى. وكانت القوائم

التى بيدى تحوى معدات لانشاء المستشفيات الحديثة، وهذه كانت من الأشياء غير المتوفرة فى روسيا . وكانت تحوى أيضا كميات كبيرة من الأدوية بمافيها البنسلين و بلازما الدم وغير ذلك من العقاقير والأدوية التى لا يمكن الحصول عليها فى صيدليات موسكو . وكانت القوائم تضم أيضا أدوات للمكاتب الحديثة وآلات من أحدث الطراز وأشياء أخرى لا تقل أهمية .

ولم أكن أتوقع بحال أن أتلقى ردا إيجابيا من ميكويان فى هذه الزيارة الأولى. ولكن الحقيقة هى أننى لم أسمع منه شيئا أبدا .. الأمر الذى أحسست أنه ينطوى على سوء حظ لكلينا .فقد كان الأمريكان فى حاجة ماسة لسفارة جديدة ، وكان الروس على التأكيد سيستفيدون بمزايا المواد التى عرضناها عليهم .

على أن شكوانا الكبرى من معاملة الحكومة السوفيتية ليست ناشئة عن المتاعب البدنية التى نلاقيها، بل من القيود التى تفرضها على حرياتنا كآدميين ، فالروس يطلبون إلى مستعمرة الأجانب فى موسكو أن تعيش معزولة عن مجرى الحياة فى العاصمة السوفيتية كما يعيش الكرملين ورجاله معزولين عن الحياة العامة فيها .

ومستعمرة الأجانب لايمكن أن يُتَصَور أنها تعيش كما يعيش رجال الكرملين داخل نطاق لا تزيد مساحته على ثلاثين فدانا محاطا بالأسوار الحمراء ، بل هم فى الواقع أبعد عن ذلك، فهم موزعون فى كل أنحاء المدينة. وسواء كانت هناك أسوار أو لم تكن فان الحكومة السوفيتية تفرض أقسى أنواع العزل بين الأجانب الذين لا يزيد عددهم على الخمسمائة ، وتحول بينهم و بين الاتصال بالمواطنين السوفييت مع استثناءات قليلة . فنحن منقطعون انقطاعا تاما عن السواد الأعظم من الشعب الروسى بفضل المراقبة الدائمة لرجال البوليس، و بفضل الدعاية الواسعة والخوف من العقوبة . ولا يزال من السهل على أى روسى أن

يستعيد فى ذاكرته فترة التطهير الهستيرية بعد عام ١٩٣٠ حين حُمِل الموسكوفيون على الانتقال إلى المنطقة القطبية فى سيبريا ووضعوا فى معسكرات السخرة لا لذنب جنوه اللهم إلا مصادقتهم ومصاحبتهم للأجانب .

وقد حدثنا أحد المراسلين الأجانب فى موسكو بيدى أسفا ساخرا ولكنه دقيق من هذا الموقف فقال « قد يكون خيرا لو أقيم حائط فعلا يوقف جهودنا عن النفاذ إلى الخارج لمعرفة الشعب الروسى والتفاهم معه.. ولو كان هذا هو الحال لنطحنا برءوسنا هذا الحائط وكان لنا ما نستطيع أن نريه للناس ، فإما أن نترك ورما فى جباهنا أو يسيل الدم منها . ولكن النظام الحالى أسوأ من ذلك ، فأنت تنطح برأسك المرة تلو المرة فى حاجز من الفراغ العقلى وحين تقع لاتجد أثرا يمكن أن تستشهد به على ما حدث »

والنتيجة المحتومة هى أن مستعمرة الأجانب تعيش مع بعضها باستمرار وتعمل مع بعضها ، وتلهو مع بعضها أيضا . ونقرأ كلنا ترجمة واحدة للمقالات التى تنشر فى الصحف وتتبادل انطباعاتنا ومعلوماتنا ونحتفى ببعضنا البعض فى حفلات الشاى والعشاء والرقص والسينما والألعاب وغيرها .. ونرى جميعا نفس حفلات الباليه والأوبرا والدراما .

وفى أعمالنا كسفراء تحددت اتصالاتنا بكبار رجال الحكومة السوفيتية بما لا يزيد على مرتين أو ثلاث مرات فى المتوسط كل شهر . أما فى الحفلات الاجتماعية فإننا نراهم عادة فى فرص أقل من ذلك . ومقابلتنا للروس الآخرين فيما عدا خدمنا مقابلات رسمية عادة بما فى ذلك المناسبات الرسمية التى تحتفى بنا فيها الحكومة السوفيتية أو فى المناسبات النادرة التى تختار فيها الحكومة السوفيتية بعض الروس لحضور الحفلات التى تقيمها السفارات الأجنبية .

ونحن نبذل من جانبنا كل جهد ممكن يتمشى مع احتفاظنا بكرامتنا لتحسين صلاتنا بالشعب الروسى ، والاعتمادات المخصصة لرئيس البعثة الأمريكية فى موسكو للحفلات الرسمية اعتمادات محددة . ولكنى مع مراعاة القصد استطعت أن أقيم حفلة كبرى فى الرابع من شهر يوليه كما استطعت أن أقيم عدة مآدب رسمية للعشاء خلال فصل الشتاء . وقد شملت قائمة المدعوين إلى أول حفلة أقمتها فى ٤ يوليه أسماء كبار رجال وزارة الخارجية السوفيتية وكبار موظفى الوزارات الأخرى التى لنا صلة بها ، كما شمل أسماء كبار ضباط الجيش والبحرية والطيران وكبار الكتاب والفنانين والمثقفين وأعضاء المهن . وقد بلغ عدد المدعوين نحو ثلثمائة ، ولكن لم يحضر منهم سوى خمسة وعشرين ! ! . وقد كدت أشعر باليأس القاتل من هذه الصدمة التى أصبت بها فى الواقع . ولكن خفف علىّ وقعها ما اكتشفته بعد ذلك من أن هؤلاء الحاضرين كانوا أكثر بكثير من الذين استجابوا لدعوة سفير آخر من سفراء الدول الغربية .

وندر ما كنا نتلقى ردا على دعواتنا . ومن ثم كنا دائما لا نكاد نعرف ما إذا كان أحد من الروس سيحضر حفلاتنا أم لا حتى اللحظة الأخيرة .

وكانت الدعوات تُرسل عادة عن طريق وزارة الخارجية الروسية . وقد اكتشفت فى كثير من الحالات أن المدعو المعنى بالدعوة قلما يتسلم بطاقة الدعوة الموجهة إليه . وقد قال لى أحد الضباط الروس من الذين لهم حرية العمل أكثر من المعتاد أنه لم يتلق أية دعوة منى أبدا وقال لى: «هاك رقم تليفونى فإذا أردت أن تدعونى فدق لى التليفون » . وكان هذا بالطبع قبل صدور قانون أسرار الدولة الذى ضرب ستارا حديديا حولنا فى موسكو .

وحين زار الفيلد مارشال مونتجمرى موسكو كضيف على الاتحاد السوفيتى

أقمت حفلة عشاء دعوت إليها المارشال فورشيلوف والمارشال كوتيف، وقد قبل الأخير الدعوة وحضر المأدبة . وطلبت وزارة الخارجية الروسية أن أوجه الدعوة إلى ضابط كبير آخر خلاف المارشال فورشيلوف الذى كان مريضا وقد استجبت لطلب الوزارة . وكان المارشالان غاية فى البشاشة والصداقة . . ولكنهما أكلا قليلا وانصرفا مبكرين .

ونحن نعتمد عادة على قبول واحد أو اثنين من الموظفين الشبان فى إدارة البروتوكول فى وزارة الخارجية الروسية لدعواتنا لأن جزءا من عملهم الذهاب إلى الحفلات . وأعتقد أن الذين يلبون دعوتنا يمتعون أنفسهم بما فى الحفلة إمتاعا حقيقيا . وعلى أية حال فعندما اشتدت الحرب الباردة أصبحنا نعتمد على هؤلاء فقط فى حضور دعواتنا مع حضور أحد وكلاء الوزراء لوقت قصير . وكانت هذه هى الحال بالنسبة لاحتفالنا بعيدنا القومى .

ومن الناحية الأخرى كنا دائما نُدعى إلى الحفلات الرسمية التى يقيمها مولوتوف وزير الخارجية الروسية . وكنا دائما نذهب ونُستقبل بكل احترام . وفى أول قدومى إلى موسكو كانت الحفلات الرسمية الروسية غاية فى البذخ . . تُقدم فيها أغلى الأطعمة والمشروبات . ولكنها أخيرا باتت أكثر تقشفا . وللحفلات الروسية الرسمية طابع مميز إذ تُعد فيها حجرات متفرقة يُوجه إليها المدعوون حسب مراكزهم .

فيجتمع السفراء ومن فى مستواهم من كبار الموظفين السوفيت فى حجرة واحدة ، ويتجمع فى حجرة مجاورة الوزراء المفوضون وكبار رجال المفوضيات والسفارات والقواد العسكريون . أما من هم أصغر من ذلك فيُجمعون فى غرفة ثالثة . وتُنسَّق المأكولات والمشروبات بالتدرج حسب مراتب المدعوين .

وفى حفلات أعيادنا القومية فى قصر سبازو كان الأمريكيون جميعا يجتمعون فى صعيد واحد بغض النظر عن مراكزهم ودرجاتهم . ولكننا تساهلنا فى قبول العادات الروسية إلى حد أننا كنا نخصص مائدة منفردة ليجلس عليها كبار الزوار من الروس. ولم أقبل أن أذهب فى التساهل إلى أبعد من ذلك البتة .

وقد دأب مستشار السفارة مستر فوى كوهلر على إقامة حفلة كوكتيل كل أسبوع لمدة شهر . وكان يدعو إلى كل منها عشرين من الروس و بعض الضيوف الآخرين . وفى مناسبات قليلة كان يقبل الدعوة روسى أو روسيان ولكن فى معظم الأحوال كان المدعوون جميعا لا يحضرون الحفلات . وقد ذاق نفس التجربة كل الممثلين الغربيين . ولم يكن ممثلو الروس يظهرون بأعداد كبيرة إلا فى الحفلات الرسمية التى تقيمها الدول الضالعة مع روسيا والتى تسير فى فلكها . أما نحن فكان كل منا يعتمد على الآخر فى هذه الحفلات .

وكنا مدركين كل الادراك أن هذا العوز فى المؤثرات الخارجية سيترتب عليه عقم فى التفكير الجديد وتماثل مزعج فى الأفكار القديمة . ولكننا كنا بالمعنى الصحيح ضحايا نظام لا يمكن أن يغيره مجهودنا . . نظام ليس جديدا على روسيا السوفيتية ولكنه قديم قدم الشك التاريخى الذى يساور نفس الشعب الروسى ضد الأجانب .

وفى الواقع كانت هذه المشكلة موضعا للمزاح فيما بيننا و بين أنفسنا . ومن المزاح المحبب ما حدث فى إحدى الحفلات الديبلوماسية الكبرى إذ أسر أحد الملحقين عند دخوله قاعة الحفلة إلى أحد زملائه بأعظم إشاعة خيالية يمكن أن تتصور . وكانت من الضخامة بحيث لا يمكن أن تدخل فى نطاق الامكان . ولكن رغم

ذلك لم تكد تمر نحو عشر دقائق حتى كانت الاشاعة قد طافت بكل أرجاء القاعة وعادت إلى مخترعها بشيء كثير من المحسنات والتأكيدات القاطعة بصدقها . وقد بذل بعد ذلك جهدا لاحاطة الموجودين علما بأن القصة أولا لا أساس لها من الصحة . . ولكن كيف له إبلاغ ذلك إلى كل ضابط صغير سمعها . وكانت النتيجة طبعا أن بعضا من هذه الاشاعات الخيالية قد سجلت فى مكاتب كثير من السفارات الأجنبية المختلفة .

وفيما يختص بسفيرى أمريكا وبريطانيا حرصت الحكومة السوفيتية على أن تجعل صلة المواطنين الروس بهم صلة لا تقوم على الصداقة الكاملة ولا على التطلع الكامل . وقد زودتنا الحكومة بحراس يتبعوننا فى سياراتهم أينما نذهب . فهم يدخلون المتاجر معنا ويذهبون للصيد معنا وللتزحلق على الثلج ويقفون بالباب ينتظرون فى صبر خروجنا من مكاتبنا أو من مكاتب السفارات الأخرى التى نقوم بزيارتها .

والسبب فى هذه المتابعة كما قلت من قبل هو العمل على حمايتنا. والروس يؤمنون بالعقيدة الشرقية فى اكرام الضيوف الأجانب . ومن ثم فهم مصممون على أن يحولوا دون وقوع أى أذى عليهم ماداموا فى ديارهم . والحكومة السوفيتية على علم بأن محاولتين قد وقعتا للاعتداء على حياة بعض المبعوثين الأجانب فى موسكو ، وأن إحداهما نجحت وسببت معقباتها ضيقا وكلفا للحكومة الروسية . ومن هنا يبدون أن ليس فى عزمهم أن يسمحوا بوقوع حوادث من هذا النوع مرة أخرى .

أما أنا شخصيا فلم أعتقد فى ضرورة هذه الاحتياطات طوال مدة إقامتى فى موسكو التى عرف عن شعبها الذى حمل على النظام حملا ، أن ٥٠ ألفا من الأسرى الألمان قاموا بعرض فى شوارع المدينة والحرب فى قمتها دون أن يثير هذا الموكب صفيرا ومواء كمواء القطط .

ومهما يكن من شيء فقد كان الحراس موجودين طوال الأربع والعشرين ساعة كل يوم بأمر من الكرملين سواء أكان الهدف من وجودهم هو حمايتي أو الحد من اتصالي بالمواطنين السوفيت . . فقد أدوا الغرض بنجاح تام .

ومن أعظم التجارب المسلية التي وقعت لي معهم أنني قررت في مناسبة ما ـ بوحي اللحظة ـ أن أقود سيارتي إلى بحر موسكو دون سابق إنذار مني لحراسي . وهناك أقنعت مدير أحد المصايد التعاونية أن يحملني في القارب الوحيد الذي كان ظاهرا في المكان لأصطاد السمك . وقد افترضت أن الحراس سيبقون في سيارتهم انتظاراً لعودتي . . ولكن افتراضي كان خاطئا، فما كدت أسير بقاربي بضع دقائق حتى سمعت ضربات مجداف في الماء . وتلفت ورائي لأرى ما حدث ، فاذا بي أرى قاربا صغيرا مملوءا بالثقوب يتبعني وفيه حراسي الأمناء . وكان أحدهم يحرك المجاديف بينما جلس الآخران وقد مدا ساقيهما في الماء إلى الركبة . وقد حرصوا على أن تكون بين قاربهم و بيني مسافة تسمح بتتبع حركاتي . وقد كنت على وشك الرثاء لحالهم والعودة إلى الشاطىء حين ظهر قارب آخر يحمل سيدتين من الروس . وقد حيا الحراس ركاب القارب الجديد و بعد تبادل بضع كلمات فيما بينهما عاد القاربان إلى الشاطىء حيث انتزع الحراس من السيدتين قاربهما واستبدلوا به قاربهم المثقب واستأنفوا السير في البحر وأخذوا موضعهم السابق مني . وحين عدت إلى المرفأ وجدتهم جالسين وقد غاصت أرجلهم إلى الركب في ماء البحر . وفي الحق أني لم أشهد في حياتي نفوسا أشد بؤسا من هؤلاء ، ومع ذلك لم يبد عليهم أنهم يبالون بذلك .

وقد ظن رجال البوليس السري بعد تجاربهم مع السفير الأمريكي السابق مستر إيفريل هاريمان أن كل السفراء الأمريكيين ممتازون في التزحلق على الجليد ومن ثم ضمنوا حراسي في الشتاء بعضا من مهرة المتزحلقين على الجليد في الاتحاد السوفيتي

ولعلهم قد خابت آمالهم بعد أن شاهدوا حركات هاريمان الرشيقة على الجليد أن يرونى وأنا أسقط من أصغر تل . ولكنهم كانوا دائما ورائى يسارعون لانقاذى ولإيقافى على قدمى وتنظيف ملابسى من الثلج المتناثر ثم يهرعون ليقفوا على مبعدة منى فى المؤخرة ليعودوا إلى انقاذى مرة أخرى .

والسفيران البريطانى والأمريكى هما وحدهما من رجال السلك السياسى اللذان يتمتعان بشرف الحراسة المكشوفة . على أن الموظفين الديبلوماسيين الآخرين يُراقبون عن كثب بدرجات تتفاوت بتفاوت العلاقات الديبلوماسية بين بلادهم و بين الاتحاد السوفيتى . وهذه المراقبة تجعل الاتصال بالشعب السوفيتى مستحيلا مادام الروس لايرغبون بلا ضرورة فى لفت نظر البوليس السرى لهم .

وعلى أية حال فقد حضر عدد من الروس خلال سنتى ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ الحفلات الرسمية التى أقمتها فى قصر سبازو كما حضروا العروض السينمائية التى كنا نقيمها فى مساء الأحد ويحضرها كل رجال المستعمرة الأجنبية . وكان ضيوفنا الروس عادة من المثقفين أو رجال الفن من الكتاب والفنانين و بعض رجال المسرح والباليه الذين كانوا يُعْتَبرون من الشخصيات العامة واالذين كانوا يتمنعون فيما يبدو بسماحة فى الاتصال بالأجانب .

وكان إينشتاين مدير الانتاج السينمائى المشهور من الذين يحضرون عادة إلى سبازو وإلى قبيل وفاته بقليل لم يكن يفوته أى عرض سينمائى من الأفلام الأمريكية التى كنا نقوم بعرضها على الرغم من أن نقده لمعظمها كان لاذعا وسافرا .

وكان إينشتاين يتكلم الانجليزية بطلاقة وكان واسع الخبرة جذاب الشخصية ومن الضيوف المرحب بهم دائما . وكان خليفته وتلميذه الكساندرون من الذين

يحضرون من وقت لآخر مع زوجته الحسناء التى تلعب دور البطولة فى كل أفلامه . ومن الضيوف المسلمين الدائمين الذين كانوا يترددون علينا فى تلك الأيام الجنرال اخباتيف وهو البقية الباقية من فرقة الضباط الارستوقراطيين التى كانت قائمة قبل الثورة الشيوعية . وقد كان ياورا لآخر قياصرة روسيا السالفين ثم عين ضابطا فى السوارى وكان له فيها نشاط يذكر له. وعند قيام الثورة كان ملحقا عسكريا فى باريس . وقد اختفى عن الأنظار عدة سنوات كما اختفت معه سجلات مكتبه . وحين هدأت الأحوال بعد الثورة عرض على الحكومة البولشفية خدماته . وقد قبلتها هذه الحكومة . وهو الآن قد جاوز السبعين من عمره ، ولكنه يبدو أقل من ذلك بعشر سنوات . وهو معلم الآن باحدى المدارس العسكرية .

وقد كنا فى اتصالاتنا بهؤلاء الناس نتفادى التحدث فى السياسة وكنا نستمتع بمعرفتهم . وقد ظلت علاقتنا بهم قائمة إلى أن ساءت العلاقات على أثر إصدار قانون أسرار الدولة الذى جعل التحدث إلى أحد الأجانب فى أى موضوع قد تجعله سرحات الخيال المشتطة مما يتصل بأسرار الدولة . . وعندئذ فقط أنهينا علاقاتنا بهم .

وكل موظف أجنبى رسمى فى موسكو له أحد المعارف من الروس يحتفى به اجتماعيا والاعتقاد السائد بين رجال المستعمرة الأجنبية أن هذا العمل يتم لغرض واحد هو ألا يقول الأجانب إنهم لم يدعوا قط إلى بيت روسى على أساس العلاقات الشخصية . ومضيفنا غير الرسمى كان الكسندرون رئيس إدارة « بورو بين » ، وقد احتفى بنا هو وزوجته المثقفة الجذابة التى كانت تقوم بالتعليم فى جامعة موسكو أكثر من مرة . ولقد كانوا يحتفون بنا كما علمنا بعد ذلك لافى بيتهم الخاص بل فى شقة كانت مخصصة لهم بحكم وظيفتهم . وكانت الحفلة تضم موسيقى وغناء . وفى بعض الأحيان

عرضا سينمائيا . وقد تبادلنا كثيرا من الهدايا فى المناسبات واتصلنا بهم اتصالا طيبا وأحببناهم .

ومما يؤسف له أنه قبل رحيلى قبض على الكسندرون وزوجته . وقدعلمت أن مدام الكسندرون أفرج عنها ،أما زوجها فحكم عليه بالسجن لمدة طويلة . وعن طريق الكسندرون وزوجته استطعنا التعرف إلى نجم الباليه جولو بين وزوجته اللذين علما اللغة الروسية لبعض موظفى السفارة . وقد سمعت أن جولو بين وزوجته قبض عليهما أيضا ولكنى أحسست بالسعادة حين لقيته قبل سفرى فى أروقة مسرح بولشوى ولم أحاول أن أضايقه بالحديث ولذلك مررت به دون أن أبدى أية معرفة به .

ولم تكن الهيئات الديبلوماسية فى موسكو على أية حال أسرة واحدة كبيرة غاية فى السعادة، بل كانت خليطا من كل البشر تجمع بين أقصى اليمن وأقصى اليسار . فكان فيها الديبلوماسيون ذوو الخبرة الطويلة والدماثة الاجتماعية الطبعة ومن المتحدثين بعديد من اللغات كما كان فيها الممثلون السياسيون من العمال أنصار الشيوعية من البلاد التى تجرى فى الفلك الروسى ممن قضوا عدة سنوات فى السجون السياسية فى بلادهم .

وقد جاءت الحرب بطراز جديد من الديبلوماسيين هم السفراء العسكريون الذين كنت واحدا منهم كما كان الجنرال جورج كاترو سفير فرنسا وهو ظابط ممتاز وكان من قبل حاكما عاما للهند الصينية وللجزائر . كما كان من طرازنا أيضا الجنرال بوبوفيك سفير يوغوسلافيا وهو طبيب انخرط فى سلك العسكرية أثناء الحرب الأهلية فى اسبانيا وأخيرا أصبح محاربا ممتازا فى صفوف الثوار من أنصار تيتو الذين يعملون لتحرير يوغوسلافيا من النازية .

وكان عميد الهيئة السياسية الديبلوماسية عند وصولى إلى موسكو الدكتور « فو » السفير الصينى الذى أمضى فى موسكو حوالى عشر سنوات . وكان يواجه مهمة شاقة فى ذلك الوقت هى مهمة تمثيل حكومة الصين الوطنية التى كانت روسيا لاتزال محتفظة بعلاقاتها الرسمية بها فى الوقت الذى كانت تعد فيه قوات الصين الشيوعية جيوشها فى شمال الصين لقلب هذه الحكومة . وكان الدكتور « فو » غاية فى الذكاء موفور الثقافه كأى صينى مثقف . وقد ساعدتنى تجارب الدكتور « فو » الطويلة ومعرفته بالروس وطبائعهم مساعدة كبيرة فى الشهور الأولى من قدومى إلى موسكو .

أما الجنرال كاترو وزوجته فقدما موسكو قبل وصولى بسنتين . وبسبب معرفتنا السابقة واتصالنا فى شمال افريقيا عندما عين حاكما عاما للجزائر بعد أن أنهى الغزو الأمريكى سلطان حكومة فيشى عليها فى عام ١٩٤٢ ، أقبل علىّ يقدم لى مساعدات شخصية ومساعدات فى العمل . وكاترو رجل طويل القامة معتدل العود نحيف الوجه أقرب إلى التقشف فى مظهره ، تتمثل فيه خلاصة الثقافة الفرنسية فضلا عن مزاياه العسكرية وخبرته الحكومية .

وقد كانت صلاتنا على خير ما تكون الصلات ، وأحاديثنا غاية فى الصراحة ولكنه كان معنيا بمشكلة داخلية فى سفارته تعكس المرارة والانقسام الذى كان طابع الحياة السياسية الفرنسية إذ ذاك . فقد كان حتى رجال سفارته الديبلوماسيين منقسمين إلى ثلاثة أحزاب بعضهم يؤيد الحكومة القائمة وبعضهم يؤيد عودة ديجول وفريق صغير ولكنه طموح من المؤيدين للشيوعية . وكان وجود هذا الفريق الشيوعى إيذانا بأن كل رسالة يبعث بها الجنرال إلى حكومته ستعرف فى نفس الوقت فى

وزارة الخارجية وفى مقر الحزب الشيوعى فى باريس ما لم يقم الجنرال نفسه بارسال الرسالة بالشفرة أو أن يعهد بها لأحد أتباعه المخلصين ، وكانوا قلة .

وكانت مدام كاترو سيدة مجتمع عظيمة بحق ، حظيت باحترام ومحبة كل الجالية الأجنبية . وكانت أكثر ميلا إلى الأمريكيين نتيجة لاتصالنا بها فى العمل خلال الحرب الأولى إذ كانت ترأس الصليب الأحمر الفرنسى . وهى سيدة مثقفة جذابة حادة المزاج . وقد وضحت هذه الحدة فى بعض المناسبات وكانت إحداها المناسبة التى كانت تصف فيها تجاربها المتعبة فى دار الضيافة السوفيتية فى مطار منسك خلال إحدى رحلاتها من باريس إلى موسكو . وقد ارسلت إليها عقب سماعى قصة هذه الرحلة لأول مرة شهادة وصفتها فيها بمسز منسك لعام ١٩٤٨ . وقد احتفظت بهذا اللقب خلال المدة التى أقامتها فى الاتحاد السوفيتى .

أما زميلى السفير البريطانى سير موريس بيترسون فقد عين ليخلف اللورد إنيفرشابل الذى نقل إلى سفارة واشنطن ، وقد وصل إلى موسكو بعدى باسبوعين . ومن ثم اشتركنا معا فى تعرف سير الأمور واستطلاع مجريات الاحوال فى موسكو . و بيترسون ديبلوماسى محترف فطن ، طيب النفس و إن يكن فيه بعض جفاف الاسكتلندى ، طويل القامة صامت متحفظ عند اللقاء الأول . وقد وفد بترسون إلى موسكو قادما من تركيا مباشرة. وكانت تجار به الطويلة فيها وفى بعض المراكز الأخرى فى الشرق الأوسط قد خلعت عليه عمقا ممتازا فى نظرته إلى شئون هذه المنطقة المغلقة التى تتصادم فيها مصالح الشرق والغرب . ولقد قاسمنى المعارف والتجارب إذ كان كلانا يواجه مشاكل متشابهة فى معاملاتنامع السلطات السوفيتية . وكان الرجل الثانى فى السفارة البريطانية الوزير المفوض مستر فرانك رو برتس وهو أحد الديبلوماسيين الشبان

الممتازين فى وزارة الخارجية البريطانية ، وقد أصبح هو وزوجته العربية الرشيقة من أصدقائنا الحميمين ونكاد نعدهم من أفراد أسرتنا .

وكان السفير الايطالى فى موسكو حين وصولى إليها هو السنيور كوارونى الذى خدم موسوليني باخلاص كدبلوماسى وكضابط مخابرات قبل الحرب وخلالها . وقد أقام فى روسيا من قبل على ما أعتقد فى فلاديفستك ، وهناك تزوج من سيدةروسية . وقد روى لى أنه أثناء إقامته فى كابول فى أفغانستان تآمر مع القبائل المقيمة على الحدود على أن يقوموا بثورة ضد البريطانيين فى الهند . وأنه بعث بخطة عن طريق حكومته للقائد العام الألمانى للحصول على موافقته عليها ، ولكن الألمان اعتقادا منهم بأن بريطانيا كانت على وشك الانهيار تحت ضغط الغارات الجوية العنيفة اعترضوا على الاقتراح بحجة أنهم لايريدون التقليل من هيبة الجنس الأبيض فى الشرق الاوسط والهند . وقد نقل السنيور كوارونى بعد ذلك إلى باريس . وإنى لأكن لخلفه السفير « بروسيو » أعظم الاحترام والثقة .

أما مستر دانا ولجرس السفير الكندى المقتدر فكان قليل الاقامة فى موسكو نظرا للمهام المتعددة التى كانت حكومته تعهد بها إليه فى اجتماعات الأمم المتحدةوغيرها من المؤتمرات الدولية . وأخيرا قررت أن تجعل مقره فى سويسرا بدلا من موسكو . وكان يقوم بتمثيل كندا معظم الوقت القائم بالأعمال مستر جون هولمز الذى كان من خير أصدقائنا . وكان جون وأعضاء سفارته بما فيهم الملحق العسكرى البريجادير ألارد وزوجات رجال السفارة الجميلات من ضيوف قصر سبازو الدائمين المرحب بهم.

ومن الشخصيات المهمة فى الجالية الأجنبية الامير فاروز السفير الإيرانى

وزوجته الجميلة . وفاروز جذاب الشخصية ولكنه فى العمل لا يوثق به . وقد كان عند وصولى تحوم حوله شكوك لقيامه بأعمال عدائية ضد البيت المالك فى إيران. وكان المعتقد أنه يلعب دور الضالع مع روسيا فى هذا الموقف الشديد التوتر على الحدود الايرانية الروسية فى ذلك الوقت والذى ما يزال قائما قطعا إلى اليوم . وقد غادر فاروز موسكو بعد ذلك فى ظروف غريبة وغامضة. وكان آخر ماسمعته عنه أنه يعيش منفيا فى باريس. وكان خلفه رجلا صغيرا محبوبا يتميز بغرامه الفائق بلعبة البريدج . ومن المزاعم التى تروى عنه و إن لم تخل من الصدق أنه إذا لم يستطع تكوين جماعة للعب البريدج بعد الظهر فى الوقت الذى يكون فيه الديبلوماسيون عادة مشغولين بأعمالهم يلجأ إلى اقتحام حفلات البريدج الخاصة بالسيدات . و إن من العسير توجيه اللوم إليه على هذا المسلك إذا وضعنا موضع الاعتبار حالة العلاقات السيئة التى كانت قائمة بين حكومته وحكومة الاتحاد السوفيتى ، ولم تكن له أية صلة بكبار رجال وزارة الخارجية الروسية . وكان جميع الروس يعاملونه ببرود بالغ .

وقد خففت الحكومة الروسية من حدة التوتر نوعا ما أثناء زيارة الأميرة أشرف الايرانية لموسكو . وقد وعدت بهذه المناسبة أن أحضر حفلة الاستقبال التى تقام تكريما لها ولكن لسبب ما شغلت عن الموعد وذهبت متأخرا لأجد زميلى السفير الايرانى فى انتظارى بباب السفارة فى حرص. وما كدت أصل حتى أخذنى من يدى وجرنى جرا على درجات السلم حتى وصلنا إلى الحجرة التى تقف فيها الأميرة أشرف حيث قدمنى إليها وسط الأضواء التى سلطتها علينا آلات التصوير السينمائى . وكان الانطباع الأول أن الأميرة الايرانية هى إحدى الأميرات التى كنا نسمع عنها فى القصص الخرافية . وهى ذات شعر أسود وعينين واسعتين جميلتين وملامح إيرانية خالصة . وكانت تبدو

فى رداء من الساتان الأبيض محلى باللؤلؤ . وكان يتدلى من أذنها قرط فخم طويل من الماس والزمرد قيل لى إنه هدية من الحكومة السوفيتية . وحين تقدمت الأميرة الطريق لتقودنى إلى أريكة لنتحدث حديثا خاصا ، لاحظت أن البراغيث الروسية الموجودة فى كل مكان والتى لا تحترم أحدا حتى الأمراء ، قد عضت الأميرة عضة كبيرة فى وسط ظهرها .

ومن بين الشخصيات الديبلوماسية التى كنا نلقاها دائما السفير اليونانى مسيو بوليتيس وهو ديبلوماسى دمث الخلق كثير الحركة تزوج بفتاة روسية ولم يسمح له بمصاحبتها حين غادر الاتحاد السوفيتى .

وكان مستر بوزويل يمثل نيوزيلنده وهو رجل مخلص أمين يدعو إلى حبه . وكان كل ممثلى دول الكومنولث ، وعلى الأخص مستر ألن استيوارت ممثل استراليا ، من الأصدقاء المخلصين الذين كانت لمشورتهم قيمتها .

وقد التقينا كثيرا بممثلى دول اسكانديناوة الذين يرأسهم السفير سولمان ممثل السويد والسفير برج ممثل النرويج والسفير دوسنج ممثل الدانمرك . وكان كل موظفى سفارتى هولندا و بلجيكا من أصدقائنا المقربين وقد قضينا معهم أوقاتا طيبة فى العمل والمجتمعات .

وكان من المستحيل طبعا أن تتوثق الصلات بيننا و بين الدول الضالعة معروسيا، ولكن كنا مع هذا على علاقات مرضية نوعا مع الجنرال بو بوفيك سفير يوغوسلافيا. وكنا نلتقى بالسفراء الآخرين من وقت لآخر فى الحفلات الرسمية . وكان بعضهم لطيفا والبعض الآخر لا يلقى إلينا بالا . وكانت قلة منهم تبدى نحونا جفوة ظاهرة مما يتجافى مع الأوضاع الديبلوماسية .

وكنا نحن نعاملهم من جانبنا بما يحبون أن يعاملوا به . وآمل أن تكون قد أظهرنا لهم جميعا مجاملة ثابتة لم نعدل عنها .

لقد كنا نحن الديبلوماسيين منقسمين إلى معسكرين : معسكر الغربيين ومعسكر الدول الضالعة مع روسيا : نتبادل الشك كل منا فى الآخر . وكان ممثلو الدول المحايدة يقفون على الحياد باذلين أقصى الجهد للمحافظة على أسباب الصداقة فى المعسكرين . وكنا من جانبنا حريصين على استمرار هذه ، الصداقة، فكنا أصدقاء حميمين للبعض، وعلى علاقات صداقة ومودة ببعض آخر،وعلى اتصالات رسمية بالباقين.ولكنا على هذا سواء فى ذلك ممثلى الدول الرأسمالية أو الدول الشيوعية الضالعه مع روسيا كنا نلاقى نفس الصعوبات فى محاولتنا القيام بأعمالنا مع هذه الادارة البيروقراطية الروسية الشاسعة الأطراف التى كانت سياستها تصدر كلها عن الكرملين والتى كان الموظف العادى فيها والوزير على السواء يجدون أنه أكثر أمنا لهم ولوظائفهم ألا يبدوا مايمكن أن يؤخذ على أنه دليل على رأى قد يشير إلى اتجاه الأحداث أو حتى على أى انفعال بها إلى أن تصدر الأوامر البالغة الدقة كتابة من الرجال الذين يجلسون فى قمة هذا النظام القائم على الفردية المتحجرة .

ولدى دليل هام على أنه حتى المسائل الصغيرة نسبيا التى يعالجها عندنا موظفون صغار معالجة مباشرة ،يجب أن تصدر فى الاتحاد السوفيتى عن أحد الكبار جدا من الموظفين .. فذات يوم بعثت إلينا وزارة الخارجية الروسية خطأ مع ردها على إحدى مذكراتنا التى تعالج موضوعا عاديا لا أهمية له ، صورة بالكربون على هذا الرد لحفظها فى الملفات.وقد وجدنا على هامش هذه الصورة عديدا من التوقيعات والإشارات بالرصاص لموظفى الوزارة حسب ترتيب أهميتهم . وفى آخر الهامش وجدنا كلمة موافق مع توقيع شخصية لا يقل أهمية عن وكيل الوزارة الرفيق فيشنسكى .

وقد تبين لى بالتجربة أيضا أن من الخطأ محاولة وصف الموظف الروسى بأنه «عميل حر» على حد تقديرنا نحن للفردية فى الغرب . وإذا أردنا التعميم فإن الأسلم أن نقول إن الموظف فى الحكومة الشيوعية أو السوفيتيه ليس له إطلاقا ما نسميه فكرة أو وجهة نظر مستقلة ، إذ ليس هناك إلا وجهة نظر حزب الحكومة التى ينبغى على كل موظف أن يتمسك بها و إلا انتفت عنه صفة الوظيفة. وهكذا فى الوقت الذى يمكن فيه وصف الساسة الآخرين بحق أن لهم اتجاهات رسمية مختلفة فإن من الخطأ نعت الساسة الشيوعيين بمثل هذا الوصف لأنه وصف مضلل. وخير ما يقال فى هذا المقام أن «فلانا» يبدو فى مركز يسمح له بأن يتخذ قرارات جزئية فى المسائل السياسية دون الرجوع إلى المكتب السياسى الشيوعى (كما هى الحال بالنسبة لمولوتوف) أو أن هذا السياسى لا يتجاسر على أن يتحرك يمينا أو يسارا دون الرجوع إلى حكومته ، أو أنه رجل بشوش أو اجتماعى أو أنه دائما دقيق و يتحفظ فى علاقاته مع زملائه من الأجانب أو أن له نزعات شخصية غير ذات أهمية .

ولقد أدركت الآن أن كل سوفيتى ومعظم الموظفين الشيوعيين محصنون ضد الشعور بالمحبة أو الوفاء لأى فرد من الأجانب ، وأنهم معرضون لتلقى العقاب العاجل الشديد إذا هم حاولوا الخروج على ذلك . والحزب الشيوعى يعمل على أساس النظرية القائلة بأن كل ممثل دبلوماسى أجنبى إنما يعمل فقط لصالح الحكومة التى يمثلها وأن كل ما يفعله أو يأتيه من أعمال ينبغى أن يفسر على ضوء هذه الحقيقة . فإذا ترفق بانسان أو قام بعمل يمليه عليه الأدب قيل إنه إنما يفعل ذلك بدافع الأنانية التى تمليها عليه مصلحة بلاده . ونخرج من ذلك بأنه ما من ممثل دبلوماسى يمكن أن يُنظر إليه على أنه قادر على فعل الخير لذات الخير أو القيام بأى عمل من عمل الإحسان لغير هدف شخصى

وعلى هذا الأساس ما من موظف شيوعى فى حاجة إلى أن يشعر بأنه مدين بشىء لأحد من الأجانب . وتعتبر السلطات السوفيتية كل ما يُقال أو يُفعل مراعاة للصلات الشخصية مما لا يفعله الإنسان أو يقوله أثناء قيامه بمهام وظيفته الجافة ، من قبيل العمل لصالح دولة أجنبية . وهذا الوضع يصدق بالنسبة للقول أو العمل الذى يكون فى صالح الأجنبى . أما إذا كان فى غير صالحه فإنه لسوء الحظ يكون مما يمكن الدفاع عنه بسهولة .

هذه الخصائص تفسر لى لما ذا كان الروس يستقبلون ببرود عروضى الأمينة الصريحة التى استهدفت بها أن أقدم لحكومتى وجهة النظر السوفيتية الرسمية فى كثير من المشاكل الشائكة ، وتفسر لى المذكرة الحزينة التى تلقيتها من الجنرال مرشال الذى أبرق إلىّ من الصين يقول إنه لم يتلق أى رد على الاستفهامات المتكررة التى وجهها إلى السفير السوفيتى « بتروف » بشأن إعادة الأسرى اليابانيين إلى وطنهم على الرغم من أنه أعاره سيارة من طراز جيب . وقد كانت هذه الرسالة مصدر راحة لنفسى نوعاما إذ أدركت أن النظام السوفيتى المتبع لا يحترم الأشخاص وأنه يطبق بعنف على ممثلينا الممتازين فى الخارج كما يطبق علىّ تماما .